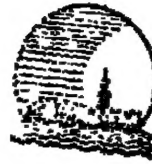


اهداءات ٢٠٠٠
ا.د. رشيد سالم الناضوري
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

المكتبة الثقافية

١٢١



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
المنظمة العامة لمكتبة الإسكندرية

التاريخ والسير

الدكتور حسين فوزي إنبار

للتأليف والتأليف

الدار المصرية

للتأليف والتأليف

١٥ نوفمبر ١٩٦٤

توزيع



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

طنطا ميدان الساعة

ت : ٢٥٩٤

التاريخ

بين الماضي والحاضر

تقديم

هنا بحث في علاقة السير والتراجم بالتاريخ ومثل هذا البحث لا يحتاج إلى تقديم أو مقدمات لأنه يطرق موضوعه مباشرة ، ولا يحتاج إلى شرح يمهّد به المؤلف للفكرة التي يقدمها لقرائه ، إلا أن يفصح عن سر اهتمامه بهذا البحث ، والأفكار التي راودته والتي يعنىها في بحثه هذا .

ولعل الهواية هي التي حملتني أولاً على هذا البحث ، الهواية التي تشدني دائماً إلى البحوث التاريخية ، ولكن الهواية وحدها ، لا تصبح حافزاً على الكتابة ، ما لم تصحبها تلك الرغبة الملحة التي تحمل الباحث أو الكاتب على الاتصال بغيره من الباحثين في ميدانه أو بمجتمهرة القراء ممن تغنيهم أمثال هذه البحوث أو يشاركون الباحث هوايته لها .

ولقد حملتني تلك الرغبة الملحة على كتابة هذا البحث ودفعه إلى المتخصصين والقراء ، ذلك أننا ما زلنا نشق طريقنا بمجهود وتوتر في ميدان البحوث التاريخية ، ما كان منها منصبا على التاريخ ، وهو ما يستوعب غاية جهدها ، أم متصلا بفلسفة التاريخ أو التاريخ كعلم له أصوله وطرائقه ومناهجه ، وهما ما لم نعن بهما بعد ، وما زلنا نعيش فيهما حالة على الغرب ، وحتى في هذا نكتفي بالقشور ولا تنفذ إلى اللب فتبدو الفكرة غائمة في أذهاننا وتحملنا بعيدا عن جوهر الحقيقة التاريخية ومن ثم يأتي تحليلنا للواقعة التاريخية فجأ سقيا منحرفا ، فإذا تجنبنا تلك المسالك الوعرة في ميادين الفلسفة التاريخية أو مناهج البحث التاريخي الحديثة كانت روايتنا للتاريخ سردا مملا لأحداث ماضية لا تبين فيها حكمة التاريخ أو القصد من دراسته .

ولا أحاول أن أكون متشائما في نظرتي هذه ، وإنما أقرر حقيقة واقعة نهديها لجهد شاق ما زال ينتظرنا في ميدان الدراسات التاريخية ، حتى تتكون لنا شخصية تاريخية متميزة

مستقلة نستوحىها حقيقة الماضى دون تحيف ويكون طريقنا
الحاضر قويا نسلكه على هدى وبصيرة .

وليس بحثى هذا إلا محاولة ضئيلة فى جانب من جوانب
الدراسات التاريخية الفسيحة حملتنى عليه أفكار عديدة راودتنى
عن ماهية السير والتراجم وعلاقتها بالتاريخ ، لا أدعى أنى جئت
فيها بمجديد وكل ما أستطيع أن أقوله ، إنها فيما عدا استشهادى
بأفكار غيرى بعد مناقشتها والحكم لها أو عليها ، من تفكيرى
وحدى ، لى فيها ثواب المجتهد وعذر المخطيء ، وما أبتغى
من ورائها إلا أن أُلج ميدانا ظل مغلقا أمامنا هو ميدان
« فلسفة التاريخ » أرجو أن يلجّه غيرى من الفلاسفة والمؤرخين
وأرجو أن أسير فيه إلى الغاية المرجاة منه .

ولقد أخذت هذا الموضوع بالذات بعد أن نشطت لدينا
كتابة السير والتراجم وأوقت على جهد المؤرخين فى كتابة
التاريخ العام فما زال جهدنا فى هذا الميدان ضئيلا ، بل إن جهد
الزملاء من المؤرخين فى كتابة السير التاريخية جهد ضئيل

إذا قيس بجهد غيرهم من الأدباء والكتاب في هذا الميدان .
فإلى هؤلاء الأدباء والكتاب وغيرهم ممن استهوتهم كتابة
السيرة التاريخية أسوق هذا البحث مؤملاً أن يتقارب في الكتابة
عن الشخصيات التاريخية منهج المؤرخ العلمى ولمسة الأديب الفنان .
والله ولى التوفيق ؟

دكتور حسين فوزى النجار

للمعادى فى { ١٦ صفر ١٣٨٤
٢٦ يونية ١٩٦٤ }

ما هو التاريخ؟

التاريخ كما يرى « هيرنشو » هو مدونة العصور الخوالية وكتابتها الحافظ لأخبارها أو هو التدوين القصصى لمجرى الأحداث العالمية كلها أو بعضها ، ومن قبله عرف ابن خلدون التاريخ بأنه « فن يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا » .

فالتاريخ إذن هو جماع أحوال البشر ما يقع منهم وما يقع عليهم ، ولعلنا نقول مع ربة التاريخ في الأساطير اليونانية « إني لا يند عنى شأن من شئون الإنسان » وهو مدونة الماضى لجلاء الحاضر وفي إطاره هذا لا يبلى قديمه فهو دائم الجدة والتجدد ، ذلك أن الإنسانية ترتبط بماضيا ارتباطا وثيقا ولا تستطيع من هذا الماضى فككا ، وهنا يلعب الزمن دوره الأزلى بحيث يبدو جامدا لا يتحرك ما لم تتواتر على مسرحه أحداث هي من صنع الإنسان أولا ، فالإنسان هو صانع التاريخ الفذ لا يفوقه

فى صناعته هذه صانع آخر ، وهى من صنع الحياة ثانياً ، فالحياة
تفرض نفسها على إرادة الإنسان ، والصراع الذى يخوضه
الإنسان فى معركة الحياة هو الدراما الخالدة على مسرح الزمن .
وقد تتجدد الصور والمشاعر فى تلك الدراما ولكن
شخصها وتواتر أحداثها باقيا ، فالإنسان هو الإنسان
ومعركته خالدة ما بقى مع الزمن والحياة ، ويحق لنا أن نقول
مع المؤرخ الإيطلالى المعاصر « بندتوكروتش » إن التاريخ كله
هو تاريخ الحاضر فنحن لا نبغى حقاً من دراسة التاريخ غير
التعرف على الإطار الذى نعيش فيه ومعرفة أصوله ، ولا يتسنى
لنا معرفة الحاضر وتفسيره ما لم ندرك الماضى بالبحث فى حقيقة
وجوده ، والواقع أن كل ما يتناوله التاريخ بالبحث حاضر
موجود ، أما ما مضى وانقطع وجوده فلا سلطان للتاريخ عليه ،
ولا يستطيع المؤرخ فى هذا الميدان أن يترع إلى الخيال والتصور
فكل ما يند عن الحقيقة البليجاء الموثوق فى صحتها يبعد بعداً بينا
عن الحقيقة التاريخية التى يستند إليها المؤرخ فى معرفة الصورة
الحقيقية للماضى ، وتبدو هذه الصورة فى مخلفات الماضى المادية
من آثار ومدونات ، وقد تدخل فيها التقاليد والأعراف التى
سالت من عوادي البلى ، وحتى هذه التقاليد والأعراف لا يمكن

أن تدخل فى باب الحقيقة التاريخية ما لم يتعرف المؤرخ على أصولها وصورها الماضية وتطورها خلال سنى الماضى قصرت أم طالت حتى الوقت الحاضر ، على أن يستقيم هذا التطور مع الصورة التى ينتهى إليها فى الحاضر ، فهذه التقاليد والأعراف إذا ما تأكد المؤرخ من بقائها سليمة من عوادي البلى كانت ذخيرة طيبة لبحثه التاريخى ، وقيمتها ليست فى ذاتها ولكن فى دلالتها على الماضى وقد لا تكشف عن صورة الماضى بشكل مباشر ولكن بما تلقيه من أضواء تنير الطريق أمام المؤرخ .

ويبدو للنظرة العابرة أن الآثار والمدونات هى الحقائق الملموسة من مخلفات الماضى التى يعتمد عليها المؤرخ فى بحثه ، ولكن هذه الآثار والمدونات ليست قيمتها أو أهميتها فى ذاتها ولكن فى دلالتها على الماضى ، ولا تستطيع أن تظهر بالقيمة أو الأهمية التى تضيفها الحقيقة عليها ما لم يلق المؤرخ عليها الأضواء التى تكشف عن حقيقة الماضى وهذا هو عمل المؤرخ الحقيقى فجهد المؤرخ أن يبين الحقيقة وسط ركام من الآراء والانفعالات والعواطف ، بل والإرادة التى صنعت تلك الآثار والمدونات التى تتم عن الوقائع أو تعبر عنها ، فإذا عمل المؤرخ على أن يتقصى جهد طاقته كل أسباب الخطأ واستطاع أن يستخلص الحقيقة

التاريخية نقية بلجاء ، فإن هذا وحده لا يكفي ، وإنما عليه أن يربط تلك الحقيقة بالنزعات التي ساقها ، ذلك أن المؤرخ لا يبحث في الوقائع والأحداث فحسب ولكن في النزعات التي ساقها ، فهي الحقيقة الأزلية للنفس البشرية ، وعمل المؤرخ أن يكشف في النهاية عن النزعات البشرية التي تسوق الناس للعمل ، تلك النزعات التي تتم عن الطاقة الكبرى الكامنة في روح الإنسان .

فالتاريخ وإن كان أحداثاً أو وقائع غبرت إلا أن غايته هي جلاء الحاضر والكشف عن حقيقته ، ولا يتسنى ذلك ما لم ينفذ المؤرخ إلى حقيقة النزعات التي تسوق الوقائع والأحداث حتى « تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا » كما يقول ابن خلدون ، والمؤرخ بهذه الصفة فيلسوف أكثر منه راوية فليس هناك من فضل للراوية إلا أن يقص ما يرى أو يسمع على علانه دون أن يعرض لما يسمع أو يرى يبحث أو تحليل ، والراوية في هذا مصدر من المصادر التي يرجع إليها المؤرخ في بحثه شأنه في ذلك ، شأن الآثار والمدونات التي تكون المادة الأساسية لبحث المؤرخ .

فالمؤرخ لا يقص خبر الأحداث فحسب بل يفلسفها ويتحرى

العلل في وقائعها والنزمات التي تسوقها ليفسر على ضوءها أحداث
الحاضر الذي يعيشه وليس في مقدوره أن ينزع نفسه من حاضره ،
فكل ما يعنيه أن يتخذ من الماضي وسيلة لفهم نفسه وإدراك
ما يحيط به ، وتلك هي فائدة التاريخ وجدوى عمل المؤرخ ،
والمؤرخ غير الفيلسوف إذ بينما يقف المؤرخ أمام الواقعة التاريخية
باحثا منقبا عن نشأتها ومجراها ودالاتها ، ترى الفيلسوف يطل
على عالم التاريخ كله في صورته الكونية العامة لا يعنيه العرض
قدر ما ينفذ إلى الجوهر ، ولا يهتم بالواقعة قدر ما يهتم بالعادة ،
فيغوص وراء الواقعة بحثا وراء الجوهر وسعيا وراء الكل ،
ثم يضع مذهبا يفسر به الواقعة وكثيرا ما يعبر به المؤرخ عبورا
هينا فلا يعنى به قدر ما يعنى بحقيقة الواقعة ذاتها وارتباطها بزمان
ومكان معينين ، فإذا شدة المذهب الفلسفي اختلت نظرته إلى
التاريخ وجاوزته الموضوعية إلى الذاتية في بحثه .

والتاريخ علم وإن كان لا يدخل في مضمار العلوم التجريبية ،
هو علم بحث وتمحيص ، بحث وراء الحقيقة وتمحيص لها . ولفظ
التاريخ حتى في معناه العلمي المجرد قد لا يعنى شيئا على الإطلاق
إلا أن يكون بحثا أو طريقة للبحث ، وليس له موضوع ما لم
يقترن بصفة تميزه كالتاريخ السياسي ، ونعنى به تاريخ دولة من الدول

أو التاريخ الاجتماعى ونعنى به تطور أمة من الأمم فى حياتها ،
وتاريخ الحضارة ونعنى به تقدم الحياة الإنسانية وتاريخ الفن
وتاريخ الأديان وهكذا إلى كل ما يندرج على أية ناحية من
نواحي الحياة الإنسانية أو النشاط البشرى على الأرض.

وإن لم يكن للتاريخ معنى فى اللغات الأوربية على وجه
التعميم إلا أن يكون طريقة للبحث، إلا أن اللفظ فى معناه اللغوى
عند العرب يشير إلى الأوقات من ساعات وأيام وشهور وسنوات
أما اصطلاحاً فإنه علم يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها
وموضوعه الإنسان والزمان .

وتحتل السير والتراجم فى مدونة التاريخ مكاناً مرموقاً ، فإذا
كان التاريخ هو البحث وراء الحقيقة وتمحيصها وجلاء غموضها
فى أى جانب من جوانب الحياة الإنسانية فإن السيرة هى البحث
عن الحقيقة فى حياة إنسان فذ ، والكشف عن مواهبه وأسرار
عبقريته من ظروف حياته التى عاشها ، والأحداث التى واجهها
فى محيطه ، والآثر الذى خلفه فى جيله . لذلك كانت أقرب إلى
التأثير الدرامى من كل ألوان التاريخ الأخرى ، وكانت أكثر
إثارة للقارئ من كل كتابة تاريخية غيرها ، حيث تيجش بكافة
الانفعالات والعواطف التى تثور فى أعماق البشر والتى تتجرد

منها الواقعة التاريخية كحدث وإن كانت من عمل الإنسان ذاته، ذلك أننا حين نقص من خبر الواقعة التاريخية نجردها من كل ما يدعو إلى الحدس والتخمين من أسرار النفس الإنسانية وخوافيها، فتبقى عارية إلا من الحقيقة وحدها فهي التي تضيء عليها رداء التاريخ وبهجته، وهي التي تجلبها إلى النفس الإنسانية حين تحدوها غريزة حب الاستطلاع إلى معرفة ما جرى .

وقد تطفئ السيرة على التاريخ وتحتل الجانب الأكبر من مدونته، فمن فلاسفة التاريخ من يرى أن التاريخ ليس إلا سيرة عظماء الرجال، وهي نظرة قد بليت في بوتقة التفكير العلمي الصحيح، بل هناك من يراها إحدى سمات التفكير التاريخي البدائي وإن سادت حقبة من الزمن حين أورثها الفكر اليوناني عصر النهضة، فكانت سير « بلوتارك » رجع الصدى لفكرة الإغريق عن البطولة وتمجيد البطل حين نسبوا أعمالهم العظيمة إلى أبطال مجهولين أو معروفين، فالإلياذة والأوديسية من نظم هوميروس، والشرائع والقوانين من عمل ليكرجوس، وفي الإلياذة والأوديسية تنسب الحوارات إلى أبطال من زمرة الآلهة .

إلا أن السيرة لا تحتل مكانها الحقيقي في مدونة التاريخ ما لم

تكن هى نفسها تعبيراً عن الحقيقة التاريخية ، الحقيقة التاريخية
التي تجمع بين البطل والقوى الاجتماعية التي تتجاوب معه وتحدوه
إلى الغاية التي تنشدها .

فالسيرة جزء من كل وستبقى جزءا من الكل التاريخي
للإنسانية جمعاء .

أصل التاريخ :

الأصل في التاريخ هو إدراك الإنسان لحقيقة وجوده
الاجتماعي حين أخذ يكون أسرة يحرص عليها ويعيش في كنفها
ويورث أبنائه تجاربه من القصص التي يقصها عليهم مما غبر
من أحداث حياته ، ولعله كان يشير في هذا القصص إلى ما ورثه
أبوه من تجاربه أيضاً ، وهذا هو دور التاريخ الأزلي الذي
يقوم به إلى الوقت الحاضر حين يسوق إلينا الحكمة والموعظة
من خلال التجربة الماضية حتى تتم لنا فائدة الاقتداء في ذلك
لمن يرومه كما يقول ابن خلدون .

ولعلنا لا نخطيء إذ نتصور رجل الكهف وقد زين كهفه
بتلك النقوش البدائية التي تصور حياته ليراها ويدركها من يأتي

بعده من بنيه أو عشيرته ، ولعلنا لا نخطيء إذا قلنا إن تلك الصور التي حفظتها لنا كهوف الإنسان الأول هي أول ما دون الإنسان من تاريخه .

وقد لا نخطيء أيضاً إذا قلنا إن التدوين التاريخي يسبق بكثير اهتمام الإنسان إلى الكتابة ، إذ عمل الإنسان الأول على أن يصور حياته ويسجلها في تلك الصور التي حفرها على جدران كهفه البدائي ، ويسبق التاريخ مرحلة التدوين التاريخي بمراحل إذ أنه قديم قدم الحياة الإنسانية على الأرض وإن لم يصل علمنا إليه إلا من ثنايا الحفريات التي تكشف كل يوم عن الجديد من حياة الإنسان الأول أو تطور الحياة على الأرض .

ولكن علمنا بالتاريخ لا يصل إلا إلى عدة آلاف من السنين وهي عمر قصير إذ قيس إلى الحياة الإنسانية المديدة .

وقد لا نجد في الكشف عن حياة الإنسان الأول ثمة فائدة لنا ، فهي على الأقل تتسم بالبداوة والتشابه الذي يطوى تجربة الأحقاب في سنوات طوال ، إذ أن التقدم الإنساني كان بطيئاً إلى حد لا نلقى إليه بالاً إذا قيس بالتقدم الهائل الذي يمتطيه الإنسان في حاضره وفي ماضيه القريب نسبياً وإن عد بآلاف السنين . والذي يطوى تجربة الأحقاب في سنوات وإن طالت

إلا أنها لا تعد شيئاً في همر الأبدية الطويل . إلا أن المراحل الأولى التي طواها الإنسان في سلسلة التقدم والارتقاء تبدو من وجهة النظر التاريخية ذات أهمية بالغة ، فالكشف عن النار وطهى الطعام والاهتداء إلى الزراعة أو على الأقل استنبات البذور وحاجتها إلى الماء والتربة الصالحة وجبر العظام المكسورة ، لا تقل أبداً عن أهمية الاهتداء إلى الكتابة ، وهى ولا شك مرحلة متقدمة من مراحل الارتقاء الإنسانى ، لا تقل فى أهميتها عن الكشف عن البخار والكهرباء والذرة فى عصرنا هذا ، فهى جميعاً مراحل عديدة من مراحل تطور الحضارة وارتقاءها ، وما كان للحضارة أن تصل إلى ما وصلت إليه ما لم تجتز تلك الخطوات الأولى فى أمن ورخاء ، وسيبقى التاريخ قاصراً ما لم يهتد إلى تلك المراحل الأولى من حياة الإنسان على الأرض . فالتاريخ إذن ملحمة طويلة الأمد لا نحفظ منها غير القليل ،

أما كثيرها فضائع مع الماضى الذى ذهب به .

ولا تنعدي معرفتنا بالتاريخ معرفة ما اهتدينا إليه من مدونات العصور الماضى وهى مدونات بدأت ولا شك بعد اهتداء الإنسان إلى الكتابة ولم يصل إلينا منها غير القليل الذى سلم من عوادي البلى .

ولكن هذه المدونات بدورها وان عدت بداية المعرفة التاريخية إلا أنها لا تعد بداية للتاريخ ، بل هي إحدى مصادره العديدة وإن كانت في حقبة من الحقب المصدر الوحيد للمعرفة التاريخية . أما التاريخ أو التأريخ فقد بدأ في مرحلة متأخرة نسبياً ، إذ بينما ترجع المدونات التاريخية سواء على جدران المعابد أو قبور قدماء المصريين أو أوراق البردى أو ألواح سومر وبابل المسماة إلى بضعة آلاف من السنين قبل الميلاد ، حين قام هيكتايوس الملطي في منتصف القرن السادس قبل الميلاد فأرخ لنشأة الإغريق وتجوالاتهم الأولى وكان ذا حاسة تاريخية نافذة بالرغم مما شاب تأريخه من أخطاء ، فهو القائل « لا أقص خبراً ما لم أعتقد بصحته فأساطير الإغريق عديدة وما هي إلا خرافة » .

والواقع أن المنهج العلمي للتاريخ قد بدأ على يد الإغريق ، وإن كانت بداية فجأة إلا أنها كانت موفقة إلى حد بعيد حين أخذوا يحررون العقل البشري من سلطان الخرافة ، ويتلمسون العلل لظواهر طبيعية كانت تنسب حتى ذلك الوقت إلى نزوات الآلهة وأهوائها ، وكان ذلك عندما تنبأ « طاليس الملطي » بكسوف الشمس عام ٥٨٥ ق . م وصحت نبوءته ، فقد

تملك الإغريق حينذاك شغف بالبحث والتنقيب ، وكانت حياة الإنسان هي أول ما أثار اهتمامهم فأوغلوا في ماضيه ورادوا آثاره ودرسوا مدينته ، وكانت تلك البداية التي بدأها « هيكاتيوس الملطي » حين فصل بين الحقيقة والأسطورة في تاريخه لنشأة الإغريق .

ثم كان « هيرودوت » ويلقب بأبي التاريخ ، شب في مدينة « هاليكارنسوس » في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى « ٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م » ، وجاب أقطار الشرق باحثا في ماضيه متقصيا أحواله ، مدونا لما وعى من تاريخه في أسلوب قصصي أخذ ، وكان ذا بصيرة بطبائع الشعوب ونظرة ينفذ بها إلى جوهر الحقيقة شغوبا بالرواية والسعي وراء التفاصيل والاستطراد القصصي . فاستهواه النزاع بين الإغريق والفرس وكان قريب عهد به ، فشهد نتائج والآثار التي ترتبت عليه ورأى فيه صراعا بين مدينتين مختلفتين إن لم تكونا متناقضتين فأرخ له ، وكانت الصورة التي أبرزها لهذا الصراع هي الصورة الخالدة في مدونة التاريخ لصراع النقائض والاضداد منذ الأزل حتى وقتنا هذا .

ومن بعد هيرودوت كان « تيوسيديد » « ٤٧١ — ٤٠١

ق . م » وفاق هيروودوت في اكتناه جوهر الحقيقة من بين شتى الروايات ، وفي صوغ القصة التاريخية ، غير أنه حصر التاريخ في ميدان ضيق فحمله على الحرب والسياسة حين أفرط في سرد أحداث السياسة والحرب في تأريخه « لحرب البلوبونيز » وهي الحرب التي دارت بين آثينا وأسبرطة ، وقادته تلك النظرة الضيقة إلى تمجيد الأفراد والإعلاء من شأن البطولة ، وهي نظرة سادت الدراسات التاريخية لزمان طويل ، وهو صاحب النظرية المشهورة عن « دورة التاريخ » بمعنى أن التاريخ يعيد نفسه ، فمن المفيد معرفة ما حدث في الماضي إذ من المحتمل أن يحدث في المستقبل شيء من قبيل ما حدث في الماضي ، فكأنه اتخذ من التاريخ أداة لرسم طريق المستقبل أكثر مما هو لجلاء الحاضر وتفسيره .

وفي المشرق ظهرت حوليات مانيتون المصري ، وتاريخ بابل « لبيروسس » وقد عاش كلاهما في القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان أولهما كاهنا مصرياً عاصر بطليموس الأول والثاني ، وكتب تاريخاً باللغة اليونانية لقدماء المصريين ، اعتمد في كتابته على المدونات المصرية القديمة وقسم فيه الأسرات التي حكمت مصر إلى ثلاثين أسرة ، وهو التقسيم الذي أخذ به المؤرخون

من بعده . وقد ضاع مؤلفه ولم يبق منه غير شذرات كانت ذات
نفع كبير لعلماء الآثار ، أما الثانى فكاهن بابلى عاصر حكم
« أنتيوكس الثانى » فى سورية وكتب باللغة اليونانية أيضاً تاريخاً
لبابل استمدّه من المصادر البابلية القديمة ، ولم يبق من كتابه
هو الآخر إلا ما نقله بعض مؤرخى اليونان عنه ، وتتفق قصته
عن الطوفان وما دوته النقوش المسهرية عنها .

ومن قبل هؤلاء المؤرخين ظهرت أسفار العبرانيين على
أزمنة متفاوتة ، فى القرن التاسع قبل الميلاد على وجه التقريب جمعت
أسفار موسى الخمسة ، وأسفار يشوع وصموئيل ، وفى القرن
السادس قبل الميلاد ظهر سفر الملوك الأول وسفر الملوك الثانى
وهى التى تكون الأجزاء الأولى من العهد القديم ، وهذه
الأسفار وإن عدت من أقدم المدونات الأدبية ، إلا أنها حفلت
بقصص الأنبياء والرسل التى لا تعدو كونها قصصاً تاريخياً .
وقد تركت بنزعتها الدينية آثاراً بعيدة المدى ولمدة ألف عام
فى علم التاريخ حين آل أمره إلى القساوسة الرهبان بعد انتصار
المسيحية على الوثنية الرومانية وغداً مسخراً للاهوت لا يحفل
بالحقيقة التاريخية قدر ما حفل بالموعظة والحكمة الدينية وأخبار
الخوارق والكرامات .

وما كان لنا أن نعد أسفار العبرانيين عملا تاريخيا لولا هذا
الأثر الذى تركه آباء الكنيسة الأول فى مناهج البحث التاريخي .

من الإغريق إلى الرومان :

كان « بوليبيوس » آخر مؤرخي الإغريق العظام ، عاش
فى روما فى القرن الثانى قبل الميلاد وكتب تاريخا للجمهورية
الرومانية تناول فيه نشأة روما ونظامها السياسى وقصة الفتوح
الرومانية الأولى ، وأتيحت له هذه المقارنة بين نشأة هذه
المدينة الجديدة وشبابها الحى الذى يقذف بها إلى غوارب المجد
وبين المدن الإغريقية المستقلة فى وطنه ، ولعل تلك المقارنة
هى التى حملته على الأخذ بمذهب تيوسيديد فى « الدورة
التاريخية » ونزعة التعريف الفلسفى للتاريخ حين رآه ضربا
من ضروب الفلسفة يحدده المثل الأعلى وتؤكد الواقعة
التاريخية ، وهو تعريف أشاعه مؤرخ إغريق آخر عاش بعده
بقرن ونصف تقريبا هو « ديونسيوس » « حوالى ١٥
ق . م » ، وأخذ به الفيلسوف الإنجليزى « الفيكونت
بولنجبروك » فى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادى .
ويبقى التاريخ الرومانى حالة على مؤرخى الإغريق يكتبونه

باليونانية حتى نشر الخطيب الروماني الصارم « كاتو » كتاب
« الأصول » في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، ثم كان هذا
السياسي الروماني المتعدد المواهب يوليوس قيصر فأرخ لحروب
الغال في سفر رائع نرى فيه صورة قيصر مائلة فيه بالرغم من
حرصه على كتمان شخصيته ، ثم أصدر كتابا آخر عن الحرب
الأهلية يصور الصراع بينه وبين بومبي ومجلس السناتو .
وهناك مؤرخ من معاصري قيصر وشيعته هو سالت
« Sallust » « ٨٦ — ٣٤ ق . م » تناول أحداث عصره
العاصفة في سفر لم يبق منه غير رسالتين الأولى عن مؤامرة
كاتلين ، وهي مؤامرة سياسية دبرها روماني من أصل نبيل
هو كاتلين لقلب الحكومة الارستقراطية في روما وتولي
القنصلية العامة ، وفشلت بعد أن كشف عنها الخطيب اليوناني
شيشرون وحمل عليها في مجلس السناتو في خطب رنانه تعد
من أروع آثار الأدب اللاتينية . أما الرسالة الثانية فقد أرخ
فيها للحرب النوميديّة التي وقعت فيما بين « ١١١ — ١٠٦ ق . م »
وكان سالت كاتباً متشائماً أخذ يسوق النذر إلى قومه عن الهاوية
التي يتردون فيها بما ساقه إليهم من غدر كاتلين والخيانة التي
ارتكبها قواد روما في الحرب النوميديّة بقبول الرشوة من

« يوجرثا » ملك نيوميديا مما أدى إلى هزيمة الجيش الروماني ،
ولا يرى في كفاح صديقه قيصر للفساد الذي انحدرت إليه
الارستقراطية الرومانية منقذاً لها من الإنهيار والدمار .

وجاء « ليفي » بعد « سالست » في فترة الانتقال من
الجمهورية إلى الامبراطورية (٥٩ — ١٧ ق . م) يحدوه الأمل
على خلاف سالست بمستقبل روما وحيويتها وقدرتها على تخطي
الحن ، فأخذ يتغنى في أسلوب خطابي بأعجاد الجمهورية الرومانية
وفتوحها الباهرة ، إلا أن نزعة الوطنية تسوقه في تيارها
وتطغى عنده على الحقيقة التاريخية فيسخرها لدعم فكرته
الوطنية فلا يتحرج من أن يخترع الأحاديث ويسوقها على لسان
شخصه التاريخية .

وبعد ليفي بقرن جاء تاسيت « Tacitus » (٥٥ — ١١٧ م)
آخر مؤرخي الرومان العظام وأشهرهم على الإطلاق فصاحة
وقوة بيان ، كان قنصلاً وصهراً للقائد الروماني الشهير أجريكو لا ،
حمل على تدهور الرومان ، وصور فساد الأباطرة وانحلالهم
وما كان يدور في قصورهم من ضروب الفجور والتهتك ، وقارن
ذلك بفضائل الشعوب التيوتونية البدائية الساذجة التي أخذت
تتصل بالامبراطورية الرومانية .

وحمل تاسيت على انتشار المسيحية وعدها خطرا يهدد
الامبراطورية ، فأعلن أن النصراني هم (أعداء الجنس البشري)
ولم يدرك أبدا أن روما يمكن أن تكون حامية الدين الجديد
وأن انتشاره سيحمل الامبراطور على اعتناقه وإعلان حمايته
له بعد ذلك بقرنين من الزمان .

البطل والسيرة :

خلص الإغريق التاريخ من سطوة الخرافة وبدأت لمحات
باهرة من التفكير التاريخي تسفر عن اتجاهات بينة ، فكشفوا
مثلا عن طبيعة الصراع الأزلي بين المجتمعات البشرية ، كما رآه
هيرودوت في الصدام بين الإغريق والفرس ، وأرسوا قواعد
نظرية « الرجل العظيم » أو البطل في التاريخ وقالوا « بدورة
التاريخ » ، وعرفوا ما للتاريخ من أثر في تربيته السياسة والحكام
وما يسوقه من عظة وعبرة ، إلا أنهم أغفلوا حساب الزمان
في تدوين الأحداث فقامت في أذهانهم فكرة الاستمرار
وما تؤكده من التسلسل المنطقي للتاريخ .

وأخذ الرومان عن الإغريق تلك الاتجاهات التي سادت
تفكيرهم عن التاريخ فأكدوا نظرية « الرجل العظيم » وهي

النظرية التي بقيت حتى القرن التاسع عشر شائعة الذرى فى موكب التاريخ الحافل ، تشد أحداثه إليها شدا عنيقا لا يستطيع منها فككا ، وكأن البطل هو الصانع الوحيد للتاريخ ، وغدا التاريخ على تلك الصورة تاريخ أفراد يكتفون سير الوقائع إن لم يكن على هواهم ، فعلى أقل تقدير نتيجة لتفاعل إرادتهم أو تصادمها مع أرادة أبطال آخرين ، وسار التاريخ فى هذا الإطار تاريخا للدولة وتاريخا لحكامها وساستها وقوادها ، حتى الأعمال العظيمة التى أرست قواعد الحضارة ودفعتها نحو الارتقاء هى الأخرى من صنع هؤلاء الأبطال .

ولست الطرافة التى تتجلى فى سلوك الأفراد أكثر مما تتجلى فى سلوك الجماعات ، أو الجلال الذى يكتنف سيرة البطل ، أو الإثارة التى تتضمنها عناصر بطولته هى التى حولت — كما نعتقد — سير التاريخ نحو ذلك المجرى ، وليست الأساطير المثيرة التى نسبت إلى أبطالها من المعجزات والخوارق ما يفوق طاقة الفرد العادى ويهره هى الأخرى سببا فى أعلاء البطولة ، ولكنة الإنسان نفسه — هذا الإنسان الذى صنع التاريخ هو الذى ولد وفى أحماقه شعور بالعجز أورثته إياه تلك الظواهر الطبيعية التى لا يستطيع لها تفسيراً ، من برق ورعد وخسوف

القمر وكسوف الشمس ، وتحول هذا الشعور بالعجز إلى نوع من الاستسلام لتلك القوى الخفية ، فهو يلوذ بكل ما يجد لديه الحماية والأمن ، وتمثلت تلك الحماية في ساحر القبيلة وكاهنها وهو لا ريب إنسان ذكى استطاع أن يقنع الناس بقدرته وسيطرته على تلك القوى الخفية التي تفرعه ، ورأى الساحر أو الكاهن أن يستعين برجل قوى أو محارب شجاع تدين الأتباع بقوته وشجاعته وغدا هذا الاستسلام طبيعة في نفس البشر ، فلما بدأ الإنسان يكشف عن بعض أسرار الكون وتحركت في نفوس أذكياهم الرغبة في معرفة حقائق الأشياء وأحوالها ، بقيت في نفسه إثارة من الخوف والعجز والاستسلام تسوقه إلى اكبار البطولة وتقديسها ، وغدا الناس بين كثرة تابعة وقلة متبوعة ، وعلى رأس تلك القلة المتبوعة يتسمم البطل غارب المجد والسلطان ، فهو الملك المؤله في مصر القديمة ، وهو المحارب الشجاع في أسبرطة ، وهو السياسى أو القائد المنتصر في أثينا ، والفاتح القاهر في روما . وكان تاريخ مصر هو تاريخ أمجاد ملوك عظام ، وكان تاريخ أسبرطة فواحا بالدماء ومعارك البسالة والقتال حتى الموت ، وكان تاريخ أثينا تاريخ قادة أفذاذ من قبيل تموستكليس الذى مجده « ثيوسيديد » .

ويستوى تاريخ بلوتارك «حياة العظماء» على القمة من أعمال المؤرخين في عهده وإلى ما بعد عهده بحقب طوال ، فقد ظلت صور أبطاله نبراسا يهتديهم ملوك أوروبا وقادتها زمنا طويلا ، ذلك أنه إلى جانب ما امتاز به من قدرة على سرد الحقائق وتفسيرها ، نحا بالتاريخ إلى جانب القدوة يحثيها الناس من سلوك أبطاله وأعمالهم .

ويتسم تاريخ السير منذ ذلك الحين قمة التاريخ وتسود نظرية الرجل العظيم فتترك لمستها القاهرة في التاريخ العام ولا يعدو كونه تاريخاً لسانة الدول وحكامها ويبقى جامداً أمامها لا يتحرر منها ولا يستطيع منها فكاً حتى يومنا هذا .

ولم تستطع المسيحية حين غلبت الوثنية في روما وقهرتها ، واجتمعت لها السلطة الزمنية إلى جانب سلطانها الديني بعد أن اعتنقها قسطنطين وأعلن أنه حاميا وكبير أساقفتها أن تقضى على نظرية الرجل العظيم ، بل أعلنت من شأنها إذ بقي الناس يقدسون البطولة والبسالة من أثر تقديسهم لتلك القوة الغالبة التي تسوق البشر ، والتي ردها القساوسة إلى إرادة إلهية وقوت منها بطريق غير مباشر ، وبالرغم من انحراف التاريخ حين آل أمره إلى القساوسة والرهبان عن اتجاهه العلمي الذي بدأه

الإغريق وغدا مسخراً لللاهوت قائماً على خدمة الكنيسة وتعاليمها لا يعنى بالحقيقة قدر ما يعنى بالخوارق والكرامات التى ظن آباء الكنيسة أنها تعلى من شأن الدين فتدعم العقيدة الدينية ، فقد بقيت تلك الخوارق تسوق الناس إلى تقديس القوى القاهرة ومن ثم بقيت عبادة البطولة أو نظرية الرجل العظيم قابضة فى خفايا اللاشعور حتى انبعثت مرة أخرى فى عصر النهضة .

ومهما يكن من طابع التاريخ فى كنف اللاهوت فقد أغفل كما يقول « يورى » السببية والعلاقة بين السبب والمسبب ورد كل شىء إلى إرادة الله ، أما البشر أنفسهم فليسوا سوى دمية تتحرك بلا إرادة فى ذلك الصراع الرهيب بين الله والشيطان أو بين الخير والشر .

فلما انحسر سلطان الكنيسة وعاد الناس مرة أخرى ينشبون ركام الماضى ، ويستوحون آثار الإغريق ألواناً باهرة من التفكير العقلى والفلسفى ، بقيت فى نفوسهم آثاره من القداسة لتلك القوى الكبرى التى تسيطر على مصير البشر وهى أشبه فى تأثيرها وإرادتها بالقوى التى أودعتها الآلهة أبطال الإغريق ، فبالرغم من أن الإغريق قد أخذوا يجردون تاريخهم من تأثير الأسطورة حين حمل عليها هيكاتيوس الملطى ، إلا أن إكبارهم

للبطولة قد انتقل من البطل الآله إلى البطل الإنسان ، حتى غدا بلوتارك كما يقول ادوارد كار — أعظم مؤرخى القديم تأثيراً فى حركة الإحياء الكلاسيكى للنهضة الأوربية ، وأصبح هذا القول المأثور « التاريخ هو سيرة عظماء الرجال » حكمة خالدة حتى بداية هذا القرن وبذلك احتلت السيرة مكاتها الأثيرة فى دنيا التاريخ .

العرب وتاريخ السير :

لم تكن حركة الإحياء الكلاسيكى هى التى أوحى وحدها كما نعتقد إلى مؤرخى عصر النهضة العناية بدور البطل فى التاريخ بل إن تأثير العرب كان فعالاً فى السير بالتاريخ قدماً فى هذا الاتجاه . فقد كانت كتابة السيرة النبوية أول عمل من أعمال التدوين التاريخى يقوم به العرب ، حين مست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربى وحياته استقصاء للسنة فحملت رجالاً — كما يقول أستاذنا المرحوم عبد الحميد العبادى — توفروا على جمع أخبارها وتدوينها وكان ذلك بداية اشتغال العرب فى الإسلام بالتاريخ ، واحتلت السير والتراجم مكاناً مرموقاً فى تاريخ العرب . ويرجع هيرنشو ما نالته تأريخ العهد الأخير من العصور الوسطى إلى تأثير الحضارة العربية ، فقد تلمست

النصرانية والإسلام في الأرض المقدسة وما يجاورها ، وفي صقلية وجنوبي إيطاليا والأندلس ، ولم يكن هذا التماس بحال من الأحوال عدائياً لا في مجلته ولا في نفس الأساس الذي قام عليه

فقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم العلم والمعرفة ، لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا « الكفار » الذين كانوا يشكرون من الناحية اللاهوتية دياتهم ، على حضارة دينوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما . ففي مجال التاريخ الذي نحن بصدد الكلام عليه وحده ، نجد المسعودي العربي « ٢ — ٩٥٦ » يعرض في كتابه — مروج الذهب — عرض خبير ماهر تاريخ واتوجرافية غرب آسيا وشمال أفريقيا وشرق أوربا ، ونجد ابن خلكان الدمشقي « ١٢١١ — ١٢٨٢ » يصنف معجماً في التراجم التاريخية جديراً بأن يقرن إلى تراجم « فلو طرخ »^(١) ثم نجد شيخ مؤرخي العرب عبد الرحمن بن خلدون التونسي « ٦٣٣٢ — ١٤٠٦ » قد كتب فيما كتب مقدمة

(١) كما جاء في ترجمة العبادي لكتاب هيرنشو وهو « بلوتارك » كما جاء في أمكنة أخرى من هذا الكتاب ، وقد آثرنا اللفظ بنطقه الإفرنجي على نطقه العربي .
المؤلف

لتاريخ عام بلغت من سعة الإحاطة ، وصحة النظر وعمق الفلسفة ،
ما جعلها مصداقاً لما قاله الأستاذ فلنت في حق ذلك العالم التونسي
الكبير من أنه « واضع علم التاريخ » — يقول هيرنشو —
إن أثر هذه الثقافة العربية انتقلت إلى أوروبا النصرانية عن طريق
مدارس الأندلس وجنوب إيطاليا فكان من العوامل القوية
في انتهاء العصور الوسطى وانبثاق فجر العصور الحديثة .

والواقع أن فضل العرب على علم التاريخ يفوق ما لهم من
فضل على العلوم الأخرى التي أضاعت مشعل الحضارة الأوربية
الحديثة ، فقد أكمل العرب مبادئ الإغريق والرومان في بناء
الفكر التاريخي ، وضربوا في شتى فنون التاريخ بسهم وافر
فأرخوا للأمم والشعوب والفتوح والمغازي والسير والتراجم
والأقاليم والبلدان .

وكانوا أول من كتب في تاريخ التأريخ ، ووضعت في أذهانهم
فكرة الزمان والمكان فصنفوا العصور ، وعنوا بتوقيت الواقعة
التاريخية بالأيام والشهور والسنين وهو ما لم يعرفه مؤرخو
اليونان والرومان ، وأخذوا في الرواية التاريخية بالاسناد وهي
سنة محمود جروا عليها في رواية الحديث للمحافظة على النص ،
وتحرى الحقيقة ، وجاء ابن خلدون فربط بين الفرد والمجتمع

والواقعة والبيئة كما وضع أسس النقد التاريخي وفلسفة التاريخ .

وبلغت كتابة السير والتراجم على يد العرب ما لم تبلغه على يد الإغريق والرومان ، فارخوا للمدن كما أرخوا للأعلام ، ومن قبيل ذلك كتاب « ولاية مصر وقضاتها » للكندي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، « وتاريخ بغداد وأعلامها » للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، « وتاريخ دمشق وأعلامها »

لأبي العساكر من مؤرخي القرن السادس الهجري ، « ومعجم الأدباء » لياقوت الحموي « ووفيات الأعيان » لابن خلكان من مؤرخي القرن السابع الهجري ، « والدرر الكافية » لشهاب الدين بن حجر العسقلاني ، ويؤرخ لأعلام القرن الثامن الهجري وهي سنة جرى عليها مؤرخو العرب بعد ابن خلكان في الترجمة لأعلام كل عصر على حدة ، وتتصل تراجم أعلام المصور قرناً فقرناً بعد ذلك فترى « الضوء اللامع » للسخاوي مترجماً لأعلام القرن التاسع الهجري « والكواكب السائرة » للغزالي في تراجم رجال القرن العاشر الهجري ، « وخلاصة الأثر » للمعجمي في تراجم رجال القرن الحادي عشر ، و « سلك الدرر » للهرادي في تراجم رجال القرن الثاني عشر . وأخيراً

« تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر »
لأحمد تيمور .

إلا أن كتابة السير عند العرب لم تحفل بنظرية الرجل العظيم كما حفل بها مؤرخو اليونان والرومان ، ذلك أن البطل في التاريخ الإسلامي لم يكن غير ظاهرة اجتماعية لروح العقيدة الدينية التي سادت المجتمع الإسلامي ، يستمد كل فضائله من تعاليم الشريعة ، وقد سوت الشريعة الإسلامية بين الناس إلا في طاعة الله — إن أكرمكم عند الله أتقاكم — ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى — ثم إن الحواري والمعجزات والعقريات الفذة التي بقيت تسيطر على مشاعر مؤرخي الإغريق والرومان من تأثير الأساطير القديمة حملتهم على تمجيد البطولة والدور الذي يقوم به الرجل العظيم ، ولم يكن لهذا التأثير نظيره في الفكر الإسلامي ، فقد حرر الإسلام العقل من آثار الماضي تماماً ، وانبعث في ظله مجتمع جديد تحدوه عقيدة جديدة خلت تماماً من تمجيد الفرد إلا بقدر ما يعمل في طاعة الله ، فهذا عمر بن الخطاب يتوجه إلى المسلمين في أول خطاب له بعد بيعته بقوله « أيها الناس ، ما أنا إلا رجل منكم ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة الله ما تقلدت أمركم » .

فالبطل في السير والتراجم العربية لا يصنع التاريخ ، ولكنه في إطاره صورة تتمثل عصره وبيئته ، ولا يعدو كونه ظاهرة اجتماعية تتفاعل فيها أحداث عصره ، وهذا ما انتهت إليه كتابة السير في التاريخ الحديث .

السير في التاريخ الحديث :

ما زالت السير تحتل مكاناً مرموقاً تبوأته منذ القدم في رحاب التاريخ فهي أشبه كتب التاريخ إلى نفس القارىء ، ذلك أن الإنسان ينشد دائماً معرفة ذاته أو أنه يسعى إلى معرفة الكمال والنقص في غيره مقروناً إلى ذاته ، وكأنه يريد أن يطمئن إلى نفسه بما يراه من صور غيره . وكما تكثر المرأة من النظر إلى مرآتها حتى تطمئن إلى جمالها أو تلمح في صورتها ما يميزها على غيرها من النساء ، نرى الإنسان يقرأ السيرة وكأنه يرى فيها صورته أو صورة ما ينشده ، فقد تمنحه الثقة فتدفعه إلى الطموح أو تضيق عليه نوعاً من النساء عن طموح لم يتحقق ، أو تفرقه في خيال كاذب من البطولة والعظمة حين يصور نفسه على صورة البطل وهذا أسوأ ما تؤثر به السيرة في قارئها ، وخاصة إذا أغرق كاتب السيرة في تمجيد الشخص .

والسيرة في التاريخ كالقصة في الأدب ، والقصة بدورها أشبه ألوان الأدب إلى نفس القارئ ، وقد تفوقها المسرحية في ذلك إذ أنها تمثيل للقصة في صورة الواقع الملموس ، وهذا الواقع الملموس هو الذي يشد الناس إليه بهذا الدافع الغريزي من حب الاستطلاع ، وقد تنكر على الناس غريزة حب الاستطلاع في واقع الحياة الجارى ، ولكننا لا ننكرها بالنسبة لماض ذهب ، فهي في الأولى أتم في التطفل على أسرار الغير ، وفي الثانية فضيلة في السعي وراء التجربة الإنسانية . وكما حفلت السيرة أو القصة بالحركة والإثارة كانت أقرب إلى نفس القارئ ، إذ ينشد فيها بعض ما يمكن في عقله الباطن مما لا يفصح عنه أو عجز عن تحقيقه .

وبالرغم من أن البطل في السيرة لم يعد في نظر مؤرخي العصر الحديث غير ظاهرة اجتماعية مما يخلع عنه ثوب البطولة الذاتية ، إلا أنه منذ كتابة السير قد تطور بما يعوض مظاهر البطولة القديمة بعرض صور التفرد في حياة البطل ، وتأثير الظواهر الاجتماعية في حياته ، وأثر تكوينه الجسماني في سلوكه وأعماله ، والبحث وراء هفواته ونزواته ، أو جوانب حياته الشخصية عليها تفسر لنا عبقريته أو طريقته في التغلب على الصعاب

أو اقتحام المخاطر أو علاج المشكلات مما يستهوى القارئ أكثر مما كانت تستهويه مظاهر البطولة البدائية .

لذلك بقيت السيرة وستبقى أشهى ألوان التاريخ إلى نفس القارئ ، وقد لا تكون المتعة الشخصية من أغراض التاريخ ، إذ أن المؤرخ لا يفكر في إمتاع قارئه قدر ما يفكر في التجربة الإنسانية ذاتها ، وقد تستهويه هذه التجربة الإنسانية فلا يفكر فيما تتركه من أصدائها على الحاضر ، إلا أن المؤرخ مهما أغفل ذلك فإن القارئ وحده هو الكفيل بإدراك التجربة واستيعابها والإفادة منها في حاضره .

التجميع التاريخي للسيرة :

يحتاج البحث التاريخي كما تحتاج كتابة السيرة إلى مراحل ثلاث قد تزيد إلى أربع إذا اعتبرنا صياغة القصة التاريخية مرحلة أخيرة ، والمرحلة الأولى هي مرحلة التجميع وفيها يعمل المؤرخ على جمع المادة التاريخية التي يمكن أن يعتمد عليها في بحثه من الآثار والمدونات والروايات المتواترة التي تثبت صحتها ، وتبدأ هذه المرحلة بتحديد الموضوع من حيث الزمان والمكان حتى تتحدد عملية التجميع فلا يتشتت جهد الباحث ، ويلى ذلك

تحدد المصادر التي تتناول هذا البحث في زمانه ومكانه والتي
يتأكد الباحث من صحتها ، وتعتبر الوثائق الخطية أدق المصادر
التي يعتمد عليها الباحث إلا أنها بدورها تحتاج إلى موهبة رفيعة
من الإلمام المواتى حتى يتبين صحتها من زائفها ، كما تحتاج
إلى شفافية الحس والاطلاع الواسع والذكاء الشامل والإدراك
الدقيق ، وتأتى الآثار بعد الوثائق الخطية فى أهميتها ، وقد تبدو
الآثار مصدراً دقيقاً لا يبروه الخطأ ، إلا أنها مصدر جامد
لا ينطق ، وهى أصدق فى التاريخ للفن منها فى التاريخ للأحداث ،
فالهرم مثلاً قد يعطينا فكرة واضحة عن شكل المقبرة ومدى
اهتمام قدماء المصريين بدار الآخرة ، وقد يلهمنا فكرة عن
قوة الدولة أو جبروت الملك ، ولكنه يبقى بعد ذلك مصدراً
أصم مالم تتول وثيقة من الوثائق أو نقش من النقوش الإفصاح
عن حقيقته ، وحتى هذا النقش قد لا يكون صادقاً إذ أنه
لا يمكن أن يفصح أبداً عن أية رذيلة أو عسف اقترفه الملك
ضد شعبه حين حمله على بناء هذا القبر الهائل ، ولا يكشف
عن مثوبة أو مغفرة فى بنائه ، إذا كان التقرب إلى الملك الإله
عملاً ثوابه خير الجزاء فى العالم الآخر ، فما لا شك فيه أن الملك
هو صاحب النقش وهو كاتبه الأول . فإذا عمدنا إلى التأويل

فإن التأويل لا يصل بنا إلى حقيقة ثابتة مهما استشهدنا بالقرائن
ويختلف التأويل عادة من فرد إلى فرد ، بل ومن جيل
إلى جيل ، فالفرد يحكمه مزاجه والجيل تحكمه تقاليد وارتقاؤه
العقلي ، وما كان يستهوى المؤرخ القديم لا يستهوى المؤرخ
الحديث ، كذلك تأخذ الأحداث العنيفة بلبه ، وتبهره بطولة
المعارك وأمجاد الإنسان الفرد ، وهذا لا يعنيه غير تطور المجتمع
الإنساني إلى الكمال والخير ، ويختلف الحكم بين الاثنين
على الواقعة الواحدة ، فإذا كانت الغاية من التاريخ أن يهدينا
سبيل الرشاد كما قلنا ، فإن تأويل المؤرخ لحدث من الأحداث
أو واقعة من الوقائع هو التأويل الذي يوافق جيله وعصره ،
ويتفق مع الأفكار والمثل التي يعيشها في جيله وفي عصره .

وقد يعتمد المؤرخ إلى جمع كل غث وسمين ليقوم بعد ذلك
بعملية الانتقاء بينهما ، وهنا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل
البحث التاريخي وهي مرحلة التمهيد أو النقد ، وتحتاج هذه
المرحلة إلى قدرة فائقة من الاستقراء والمقارنة كما تحتاج إلى نوع
من شفافية الإحساس بالحقيقة ، تلك الشفافية التي تقرب من
الإلهام أو هي نوع من الإلهام الخفي ، وقد نسميها أحيانا قوة
الملاحظة أو الذكاء اللامح ، أو الحاسة السادسة التي تلهم المؤرخ

وترشده إلى الحقيقة ، وهدف هذه المرحلة هو الوصول إلى الحقيقة البليجاء بين ركام من الروايات والأسانيد والمصادر بكافة أنواعها .

التأويل والتخيل :

وتبدأ بعد ذلك المرحلة الثالثة وهي مرحلة التأويل وهي أشبه ما تكون بألعاب المتاهات ، حيث يبدأ اللاعب من نقطة البداية ليسلك الطريق الصحيح إلى النهاية . كما أنها تشبه أيضا ألعاب الحل والتركيب ، حيث يجهد اللاعب في تركيب شكل معين من قطع متناثرة لا تتجمع في وضعها الصحيح إلا في هذا الشكل فحسب ، فإذا ركبت في شكل آخر بدا مختلفا تدرك الحل فيه أى عين عابرة .

وتحتاج هذه المرحلة إلى قدرة فائقة على التركيب ، كالقدرة على تركيب هيكل حيوان بائد من عظامه القليلة المبعثرة . ولا شك أنها قدرة الخيال الرحب والذكاء القادر ، فمن ركام المخلفات الإنسانية والمصادر المختلفة والافتراءات العديدة التى يسوقها الجهل والتعصب والتفسيرات الخاطئة لأحداث تعددت فيها الروايات ، يصل الخيال الرحب إلى الحقيقة البليجاء التى لا مبن فيها ولا زيف ، ومن سمات

هذا الخيال الرحب أنه يربط بين العقل والعاطفة ربطاً لا يجاوز حدود الحقيقة ولا يتخطاها بأى شكل من الأشكال .

فالتأريخ هو بعث الماضى كما هو فى صورة حية ، والفرق بين مؤرخ وآخر هو فى القدرة على بعث الحياة فى أحداث بادت وانقضت ، ولعل الصلة التى تربط بين الحاضر والماضى هى القدرة وحدها على أن تبعث الحياة فى ماض عفى ، فإن الإنسان مقيد إلى ماضيه بارسان ثقال لا يستطيع منها فكاً وإن كان لا يحس ذلك تماماً ، وإنما الذى يحسه ويرقب ثقله على الحاضر هو المؤرخ الذى أوتى من قوة الاستقراء والشفافية والمعرفة التاريخية ما يمكنه من إدراك هذا الأثر — سواء كان فعالاً أو غير فعال — للماضى على الحاضر .

والمؤرخ كعالم الأحياء الذى يرد الأنواع إلى أصولها الأولى فعلى قدر معرفته بالحياة وتطورها على ظهر الأرض تكون قدرته على ذلك .

وعالم الأحياء الذى يرد الأنواع إلى أصولها الأولى ، هو نفسه عالم الأحياء . الذى يعيد تركيب هيكل حيوان بائد من بقاياها المتناثرة ، وكلما اكتملت هذه البقايا كان التركيب صورة للأصل ، فإذا نقصت كان التركيب ناقصاً بقدر ما فيها من نقص ، وقد يعتمد

عالم الأحياء إلى استكمال التركيب من بقايا حيوان آخر من نفس النوع وفي نفس الحجم والسن ، ولكن ما كل علماء الأحياء ممن تواتهم القدرة على تركيب هيكل حيوان بائد ، ومن تواتيه القدرة عليه فهو العالم الذي أوتى إلى المعرفة العالمية قدرة الإبداع والخلق وهي القدرة التي يتميز بها الفنان على العالم ، وإذا كانت قدرة الفنان هي في الخيال الذي يخلق به في أجواء سامقة من الخلق والإبداع ، فإن قدرة المؤرخ أو عالم الأحياء الذي يعيد تركيب هيكل حيوان بائد هي في الخيال الذي يخلق به في أجواء سامقة من الحقائق البليغة ، بحيث تقوده معرفة حقيقة بعينها إلى معرفة حقيقة أخرى . فالخيال أو بمعنى أصح التخيل في التاريخ الإنساني أو التاريخ الطبيعي هو القدرة على بعث الماضي في صورته الأصلية وإنه ليحملنا دون شك على تصور حقائق لا تسكتم الصورة بدونها ، فإذا رحنا نتحراها ونستلهم الوثائق والمدونات حقيقتها استطعنا أن نعتز عليها بين ركام الأساطير التي لا تقوم على سند من الإثبات أو التفكير العلمي . وإذا كان لنا أن نفرق بين الخيال والتخيل لقلنا إن الخيال هو هبة الفنان أما التخيل فهو هبة المؤرخ وعالم الأحياء فضلا عن القدرة البارعة على الاستقراء والاستشفاف التاريخي ، فالخيال يقوم أصلا على الخلق

والإبداع ، أما التخيل فهو القدرة على الاستعادة والاسترجاع
الذهنى .

وبقدر ما يملك المؤرخ من قدرة على التخيل تكون قدرته
على بحث الحياة فى وقائع التاريخ البائدة .

والتخيل هو النهاية التى تقف عندها مرحلة التأويل التاريخى
فعندما يستقر ذهن المؤرخ على حقيقة معينة يهتدى إليها تفكيره ،
يتخيلها حقيقة واقعة ليصوغها بعد ذلك تاريخاً مكتوباً .

وينطوى التأويل دون شك على قدر من التخيل الذى
يساعد على بناء الهيكل التاريخى من الحقائق الثابتة المجردة ،
أو يهذى إلى حقيقة أخرى تتطابق وتتماشك مع حقيقة نعرفها
وتؤكد من صحتها ، إلا أن التخيل فى مداه البعيد هو استعادة
الصورة الكلية للواقع التاريخى كما هو ، وهى نقطة الانطلاق
فى كتابة القصة التاريخية .

وقد نرى التخيل مرحلة قائمة بذاتها من مراحل البحث
التاريخى تأتى بعد مرحلة التأويل وتسبق كتابة القصة التاريخية ،
إذ أن المؤرخ بعد أن ينتهى من مرحلة التجميع ومرحلة النقد
والتحريض ومرحلة التأويل ، لابد وأن يتمثل الحقيقة التاريخية
فينبعث الواقع الذى مضى صورة حية متكاملة فى ذهنه قبل أن

يبدأ فى تدوينه ، وفيها يتشابك العقل والعاطفة فيبعثان فى الرميم
البائد حرارة الحياة .

والسيرة كمبحث من مباحث التاريخ تمثل حياة إنسانية متكاملة
من المهد إلى اللحد ، بل إنها تصل إلى ما قبل المهد من تاريخ
الآباء والأجداد ، وتمتد بعد اللحد فيما تخلفه من أثر فى جيلها
وفى الأجيال اللاحقة .

وهى أحفل بالتخيل من التاريخ المجرد ، وكاتبها أشبه
ما يكون بعالم الأحياء الذى برع فى إعادة تركيب حيوان بائد منه
بعالم الأحياء الذى يرد الأنواع إلى أصولها الأولى ، فهو أقرب
إلى طبيعة الفنان من المؤرخ المجرد ، ذلك أن البناء التاريخي
أشبه برد هيكل عظمى إلى ما كان عليه ، فإذا كان لعالم الأحياء
أن يبحث لكل عظمة عن مكانها فى الهيكل العام ، فإن على كاتب
السيرة أن يرد كل حقيقة تاريخية إلى موضعها من حياة صاحبها .

والتخيل هو الذى يضيف على السيرة كما يضيف على التاريخ
تلك الحيوية التى ندركها فى إحساسنا بالتاريخ ، وهو الذى
يربطنا بالحياة الماضية وبالواقع الذى نعيشه فى ظلها ، إذ مهما
تلاشى أثر التاريخ ، تبقى فى أعماقنا لمسة منه لا تشدنا إلى الماضى

بقدر ما تربطنا بالحاضر ، ولعلنا نقول مع « بندتوكروتشى »
إن التاريخ كله تاريخ معاصر .

الزمن والسيرة :

والتاريخ لا يعيش في خيالنا قدر ما يعيش في عقولنا وفي
أذهاننا ، فنحن لا نحياه فحسب بحيث يذهب مع الماضى الغابر
من أيامنا التى عفت ، ولكنه يبقى صورة قابضة فى أذهاننا ومائلة
لدينا على الدوام ، فقد تمر الأيام باهته لا أثر فيها ولكن التاريخ
هو الأحداث التى نحياها فعلا تتأثر بها وتؤثر فيها ، وليس هو
الأيام التى نعيشها برغم هذا الحكم القاسى للزمن على التاريخ .

والتاريخ وليد الزمن حقا ، الزمن بأيامه ولياليه وسنينه
وأحقابه ودهوره ، ولكن الزمن غالبا ما يتضاءل أمام ثورة
الأحداث أو ركودها ، فقد تمر السنون الطوال وصورة التاريخ
لا تتغير ، ثم يكون حدث كبير فى فترة قصيرة من الزمن فيترك
فى حياة الإنسان من الأثر ما لا تتركه السنون الطوال بأحداثها
الرتيبة المتشابهة .

وإذا كان التطور هو سنة الحياة فى سعيها إلى الارتقاء
كما يقول دماة الداروينية ، أو فى سعيها إلى الكمال كما يقول

الفلاسفة ، فإنه يسير مع التاريخ على وتيرة واحدة بمعنى أن التاريخ والتطور يتناسبان تناسباً طردياً إذا أخذنا بالمقاييس الرياضية . فالتطور الطبيعي يسير مع الزمن في اتساق تام لا يخطيء معه عالم الحفريات حساب السنوات للماضي من عمر الإنسانية مهما أوغلت في القدم ، والتطور الفكري يسير مع التطور الحضاري في خطى لا يسبق فيها أيهما الآخر ، والتطور التاريخي يسير مع الزمن سيرا متلاحقا ، فإنه إذ يسرع الخطى في بعض البقاع يبطيء في بعضها الآخر ، وإذا عجز بالأحداث في زمن ركد في زمن آخر ، ولكنه لا يشذ أبداً عن سنة التطور ولا يخرج على قاعدة التناسب الطردي مع الزمن ، فالزمن والتاريخ متلازمان على الدوام ، ومهما تضاءل الزمن أمام ثورة الأحداث ، فإنه يبقى دائماً العامل المؤثر في سير التاريخ . إذ أن الأحداث الكبيرة في التاريخ يسبقها ما يمهد لها ، فإذا قسنا الحدث التاريخي بوجوده كان قياساً خاطئاً وقاصراً ، وإنما يقاس بامتداده التاريخي منذ أن كان جنينا في عالم الغيب تمهد له الظروف للوقوع ، وتحدد الإنسانية الآثار التي ترتبت على وقوعه .

ولكننا حين ندون لوقائع التاريخ تبدو الأحداث الكبيرة

وكأنها ترتبط بزمن معين فتنسبها إليه ، وهنا يبدو الشذوذ الظاهري في التناسب الطردى بين الزمن والتاريخ .

أما في السيرة فإن الحدث أو الواقعة أو العمل بلفظ أدق في هذا المقام ، هو الذى يحتل وحده دون الزمن الإطار الأكبر فيها ، بمعنى أن الأفعال العظيمة التى يقوم بها فرد هى التى تجذب إليه انتباه التاريخ ، وهى التى تفتح له أبوابه ، وهى التى يعنى بها مؤرخو السير ، وإن كانت السيرة فى الواقع هى الامتداد الزمنى لحياة صاحبها من المهد إلى اللحد ، إلا أن الأعمال العظام التى تنسب إليه قد لا تحتل من الامتداد الزمنى إلا بعضه ، فأعمال نابليون تبدأ فى مدونة التاريخ منذ سلط مدافعه على الثوار الذين قاموا ضد حكومة الإدارة فى باريس عام ١٧٩٥ وتنتهى بهزيمته فى واترلو ونفيه إلى سنت هيلين ، كما تبدأ أعمال تحتمس الثالث باعتلائه العرش بعد أخته حتشبسوت وقيامه بفتوحه الباهرة التى وصلت بالامبراطورية المصرية إلى أقصى ما وصلت إليه فى التاريخ القديم ، ويختفى اسم بسمارك من مدونة التاريخ بعد أن أقصاه الإمبرطور وليم الثانى عن منصب المستشارية .

ولكننا حين نكتب سيرة من السير نذهب إلى أبعد من تلك الأعمال العظام التى تنسب إلى صاحبها ، فنغوص فى تاريخه

إلى نشاته وطفولته ودراسته ، بل ونذهب إلى أبعد من ذلك
فنتقصى حياة أبويه وأسرته ، ولعلنا لا نبغى إبراز المؤثرات
التي كونت طفولته قدر ما نبغى اكتمال الحقائق التاريخية التي
تتصل به ، وإن كان مما يهم السيكلوجيين تحليل العناصر التي
كونت شخصية البطل حتى يجدوا تعليلا لتفرده فيغوص الواحد
منهم في أسرار طفولته وحياته ، ويتقصى أهواءه وملاحظه
الشخصية ليستقرى منها ما يراه أساسا لتفسير الحوافز النفسية
للبطل ، ثم يرد أعماله إلى تلك الحوافز مما ينفر منه المؤرخ
الذى يرى في الواقعة التي حدثت وحدها تفسيراً لكل سلوك
أو حافز ، فالسيكلوجيون يقيمون بناءهم على الفروض
والاحتمالات التي ينفر منها المؤرخ الذى يقيم بناءه على الحقائق
المجردة ، وحين يلجأ إلى إبراز صمة غلبت في حياة البطل فإنه
يراه في الأعمال التي تمت فعلا على يديه .

وقد اتخذنا نشأة البطل فلا تتم عن ذلك التفرد الذى صار
إليه إذا قيست النتائج بالمقدمات ، فقد كان ونستون تشرشل الذى
قاد بريطانيا إلى النصر تلميذا متأخرا كثير الرسوب وكان صبيا
مشاكسا . ولم ينجح اديسون شيخ مخترعى العصر الحديث
في مدرسه ، ولو تتبعنا طفولة كثير من عظماء التاريخ ما وجدنا

فيها لمحة من لمحات العبقرية التي تقيسها عادة بالتفوق الدراسي ،
والانسجام الاجتماعي ، إلا أننا لا نضل بادرة توحى بشيء ما
لا يستطيع الناس تفسيره في حينه ، حتى إذا ولج مدونة التاريخ
رأى فيها مؤرخو السير بعض ما يندشون من دلالات التفرد
والنبوغ .

ومهما كانت طفولة البطل أو العظيم ، ومهما كانت نشأته
فإن أعماله وحدها ونبوغه وتفردده هي في الحقيقة هيكل
سيرته ، فإذا نضبت تلك الأعمال وغالبا ما تنضب إذا أقصى
البطل عن ميدانه ، أو أملت به كارثة ذهنية تودى بذكائه
أو عقله ، أو كارثة اجتماعية كفشل يصيبه لم يعد في سيرته
ما يستحق الذكر أو التنويه ، وتكون النهاية كما كانت البداية ،
الإطار الذي يحتله العمل العظيم للبطل من سيرته ، فسيرة نابليون
مهما كانت بدايتها ومهما كانت خاتمتها هي سيرته ما بين عام
١٧٩٥ حين قضى على الثوار في باريس وعام ١٨١٤ حين قضى
عليه في معركة « واترلو » . وسيرة بسمارك على قدر ما حفلت
به من أعمال فإنها تمضي رتيبة مريرة وهو يقضى سنواته الأخيرة
في وحدة قاتلة بالريف الألماني أشبه بوحدة نابليون في سنت

هيلين ، وفي الريف الألماني تفيض سيرة بسمارك كما تفيض
سيرة نابليون في سنت هيلين .

وقد يتسم البطل ذروة المجد حتى نهاية حياته ويكون الموت
وحده ختام سيرته .

فالسيرة التاريخية هي قصة العمل العظيم الذي قام به صاحبها ،
والزمن في حساب مؤرخي السير هو الزمن الذي امتدت فيه
أعمال صاحب السيرة ، أما العمر فهو الإطار الذي يحيط فيه
المؤرخ سيرة يكتبها .



السيرة

بين الأدب والتاريخ

الأدب والتاريخ

من الناس من يدرج السير والتراجم في باب الأدب ، وإن كنا لا نكرر علاقة الأدب بالتاريخ فإننا لا نكرر أيضا علاقة التاريخ بالسير والتراجم ، وإذا كان لنا أن نقول في تعريف الأدب إنه صورة النفس الإنسانية في صراعها مع الحياة ، فإن التاريخ هو صورة الحياة الإنسانية على الأرض. ذلك أن التاريخ لا يستطيع أن ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية إلا من خلال الأحداث والوقائع التي تثبتها الوثائق والمدونات ، والمؤرخ لا يستطيع في ميدان الحقيقة البلغاء ظنا ولا تخمينًا ، فإذا قدر له أن يحكم على النفس الإنسانية التي تسيطر على أحداث التاريخ ، أو بمعنى أدق تسيطر على سلوك من يصنعون التاريخ وتوجيه نزواتهم ، فإنما هو حكم المتحرج المتحوط الذي يجتهد في الاستقراء ، ولا يجزم بالنتائج ما لم تكن حقيقة تسندها الرواية ويدعمها الدليل القاطع بصحتها ، كأن يوصف عمل من الأعمال بالدهاء أو الحمق أو الغفلة أو الحكمة ، إلى غير ذلك من الصفات التي نسندها إلى صناع التاريخ وليس

لنا سند فيها غير النتائج التي تمخضت عنها أعمالهم من نجاح أو فشل .
فالتاريخ هو الحقيقة الثابتة المروية ، وهو حقيقة ثابتة لأن كل
الأسانيد التي يعتمد عليها المؤرخ في بحثه تثبتها وتؤيدها ، وهو
حقيقة مروية لأن التاريخ لا يعنى بما هو خاف إلا عندما يتكشف
خفاؤه ويتواتره الرواة سندا عن سند حتى يصدق ذكره .
وقد يحتاج التاريخ في تدوينه أو روايته إلى الخيال ، ولكنه
خيال لا يتعدى الأسلوب الإنشائي للرواية التاريخية ، أو هو
الخيال القادر على امتطاء متن السحاب دون أن يخرج من إطار
الحقيقة الصامدة لكل لون من ألوان النقد والتمحيص ، وها
ملكة المؤرخ الموهوب الذي يتميز بتلك الحاسة التي تعينه على
إدراك الحقيقة بين ركام من الأباطيل والروايات القلقة ، هذا
الخيال القادر إنما تتجلى قدرته في بعث الحياة إلى تلك الوثائق
والمدونات الجافة الذابلة ، واستخلاص الحقيقة من خلال القليل
المتناثر من الروايات والآثار التي سلمت من البلى والدمار ، كعالم
الحفريات الذي يرى في بطون حفرياته صورة الحياة في عصورها
الحوالي ، أو أستاذ التاريخ الطبيعي الذي يعيد تركيب هياكل
مخلوقات بادت في عصور سابقة على التاريخ من هذا القليل
المتناثر من عظامها التي سلمت من البلى صدفة واتفاقا .

ولكن خيال المؤرخ غير خيال الأديب الذى يسبح فى أجواء سامقة ، من صنع نفسه أو إلهام ذاته ، غير عابىء بالحقيقة المجردة إلا بقدر ما يلهمه الخيال من صور النفس فى نزعاتها الأزلية وفى لانهائياتها المترامية ، نفيال المؤرخ أقرب إلى التصور ، تصور ما كان على ضوء ما يعرفه عنها ، أما خيال الأديب فيخلق وإبداع ، فهما اقترب الأديب من صور الحقيقة أو الواقعية فإن واقعيته لا تعدو تصويره للحياة فى الصورة التى يرتجىها أو الصورة التى هى عليها وإن اتفق مع المؤرخ فى أنه ينشد الكمال الإنسانى إلا أن الكمال فى عرف المؤرخ يتمثل فيما يمكن أن يفيد حيل من تجربة حيل سابق ، أما فى عرف الأديب فهو الصورة المثالية التى يتمثل فيها عالماً إنسانياً ينشد الخير والجمال ؛ ومهما أوغل الأديب فى الواقعية ؛ فإن واقعيته تتعلق بصورة أو عدة صور من صور الحياة يغلب عليها الطابع الدرامى وإلا ضاع منه الإطار الفنى للقصة أو المسرحية أو القصيدة ؛ لذلك نراه يتخير أبطاله من أناس غير عاديين ؛ أوجدهم القدر فأوغل بهم إلى حيث تختل إرادة الإنسان وتبطل إيجايته ، فهو فى الغالب مسوق إلى غاية ليست ككل الغايات ، ولكنها غاية فيها بعض الشذوذ ، أو كل الشذوذ عن التواتر المعروف فى الحياة وإن كانت تلمس فى بعضها

جانباً من جوانب النفس الإنسانية في إنسان فرد ، وإن كانت
تمس جوانب أخرى في أناس آخرين ؛ إلا أنها لا تمثل إنساناً
حقيقياً في الحياة ، وإن مثلته فإنما تمثل نموذجاً من الشذوذ
الإنساني أو الخروج على المألوف . أو بعبارة أخرى تعبر عن
تجربة إنسانية من نوع خاص ، فليست هي من التجارب العادية
التي تمر في حياة كل فرد ؛ وليست هي من التجارب التي يمارسها
الفرد في يومه أو في كل يوم ، ولكنها تجربة غير مألوفة تتم عن
نزعة أو نزوة ، أو صدفة طارئة ، أو خطأ في التقدير تحمل
كما قلنا طابع الشذوذ ، وليس من الضروري أن يكون الشذوذ
انحرافاً في نزوات الإنسانية أو نزواته ، ولكن يكفي أنها تجربة
غير عادية تمر بحياة إنسان ما ، يتناولها الأديب فيجيد تصويرها
والتعبير عنها ، أو محاكاتها كما يرى أرسطو .

وقد يقال إن التاريخ ليس إلا تجربة إنسانية كبرى وهو
بهذا صنو الأدب ، إلا أن التجربة التي تثير المؤرخ غير التجربة
التي تثير الأديب ، والانفعال بالتجربة عند الاثنين جد مختلف ،
فالتجربة التاريخية حقيقة مجردة تثير في المؤرخ غريزة حب
الاستطلاع والسعي وراء حقيقة أخرى تكملها وهكذا حتى
يتكون لديه البناء التاريخي أو الهيكل العام للقصة التاريخية ،

وهي تجربة مضت وطواها الزمن وجهد المؤرخ أن يكشف عنها ويجلوها للعيان ثم يتلوها بعد ذلك في سطره ، أما التجربة الأدبية فهي موقف من المواقف يثير انفعال الأديب ، وهي تجربة ملهمة إذ يستطرد الأديب من هذا الموقف المثير إلى موقف آخر يتفاعل معه ويكتمل به إطار العمل الفني ، وليس من الضروري أن تكون هذه التجربة مما مضى وانتهى وانطوى ، بل إنها لتقع في الماضي كما تقع في الحاضر والمستقبل ، ولكنها تتعلق بذات الأديب ومدى انفعاله بها وقدرته على التعبير عنها تعبيراً فنياً يكسبها تلك الطلاوة التي يتسم بها الأديب في التعبير عما يحول بخاطره .

وإن كانت التجربة التاريخية أيضاً مما يمكن حدوثه في المستقبل ، إذ ليس في التاريخ جديد كما يقال ، وهي بهذا تتسم بما تتسم به التجربة الأدبية في أنها تقع في الماضي وتكرر في الحاضر والمستقبل ، إلا أن التجربة التاريخية تجربة مضت وانطوت فحسب ، وإن تكررت فإن تكرارها لا يعنى حق المؤرخ في القياس عليها وتصوير أحداث وقعت أو كان من الممكن أن تقع نتيجة لها ، وليس هناك ما يثبت وقوعها ومادامت لم تثبت فإنها لا يمكن أن تكون حقيقة تاريخية يعتمد

عليها المؤرخ في تدوينه للتاريخ ، وإن كان من حقه على هذا القياس أن يتنبأ بما يحدث في المستقبل ، إلا أن هذا ليس من التاريخ في شيء وإن كان من الممكن أن يندرج في فلسفة التاريخ . ولكن التاريخ والأدب صنوان من حيث الإنشاء الأدبي ، فتدوين التاريخ كالكتابة الأدبية في حاجة إلى منتهى بلاغة الكاتب التحرير ، وإذا كان للأديب أن يفعل بالمواقف التي تستثيره فتلهب خياله ، وتورى قريحته ، ويكون تعبيره عنها مليئاً بالحياة جياشاً بالعواطف ، فإن انفعال المؤرخ بأحداث التاريخ يضفي على كتابة القصة التاريخية حيوية جديدة تنبعث فيها الحياة الماضية حافلة بالحركة والنماء ، ولا يتأتى ذلك إلا لمن أوتى أسمى مواهب العقل والعاطفة معاً .

فالتعبير التاريخي غيره في أي علم آخر ، إذ أننا لا نقصد من العلوم الأخرى كالطبيعة والكيمياء غير المعرفة المجردة ، أما في التاريخ فإننا ننشد الغذاء لقلوبنا وعقولنا على حد سواء ، وسينتهي التاريخ بعد كتابته إلى أنه قصة فيه كل ما في القصص من روعة واستثارة وعاطفة ، إذ هو قصة الإنسان الكبرى في حياته على الأرض ، وفي تحديه واستجابته لظروف بيئته وفي نموه وتطوره ، وفي تحضره واختراعه لمقومات مدنيته ،

وهى قصة حافلة فيها من المأساة قدر ما فيها من الملهاة على حد سواء ، قصة مترعة بالسعادة والنعيم كماهى مترعة بالشقاء والبأساء .

السيرة قصة تاريخية :

والسيرة قصة تاريخية لا تشذ أبدا عما يقيد التاريخ من حقائق تعتمد على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء ، إلا أنها قصة تتعلق بحياة إنسان فرد ترك من الأثر فى الحياة ما جذب إليه التاريخ ، وأوقفه على بابهِ ، وهى أحفل من التاريخ العام بالعواطف الزاخرة الجياشة والأحاسيس النابضة لأنها تعرض من سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة حتى تتجلى مقومات شخصيته وتبرز معالم حياته لتفصح عن سر نبوغه وتفردهِ ، إذ لا تحفل السير إلا بكل نابغة فريد . لهذا كانت كتابة السير أمراً غير يسير لا يقدر عليها إلا من أربى على قدرة المؤرخ وإحساس الأديب معاً ، فالسيرة ليست سجلاً لحياة فرد من مولده إلى مماته ، ولكنها قصة إنسان فذ أو متميز بكل ما ينبض به قلب هذا الإنسان من أحاسيس وعواطف ، وما اعتور عقله من فلتات الذكاء الفذ والخيال الجامح . وأبرز ما فى السيرة هو العمل الكبير الذى قام به صاحبها ،

والأثر الفعال الذى تركه بعمله فى الحياة الإنسانية ، وبقدر
ما يعظم هذا العمل ويعظم تأثيره ، بقدر ما يحفل به التاريخ
فيقص خبره ويروى سيرة صاحبه ،

السيرة والحافظ :

وهذا العمل هو المحور الكبير الذى يدور حوله كاتب
السيرة ، وكل ما عداه من جوانب السيرة الأخرى كالنشأة والتربية
والحياة العامة التى يحياها صاحب السيرة ، ما هى إلا منافذ ينفذ
منها كاتب السيرة إلى الحافظ الذى قاد صاحبه إلى العمل التاريخى .
وما لم يصل كاتب السيرة إلى هذا الحافظ ويتقصى أسبابه وعوامله
كانت روايته قصة باهتة لا نبض فيها ولا حياة ، فهى سرد لحياة
قد تبدو عادية إذا جردناها من هذا العمل الكبير الذى يشد
التاريخ إلى صاحبه ، وإذا قص كاتب السيرة خبر هذا العمل مجرداً
من الحافظ الذى دفع إليه فكأنه قد جرد الجسم من روحه .

فالحافظ هو القوة الباهرة التى تحرك العبقریات والمواهب ،
فما لم يكن هناك حافظ لا تثمر عبقرية أو موهبة ، وقد يقال
إن الحافظ جزء من الطبيعة الإنسانية ، وإنه يتكون فى الإنسان
منذ نشأته الأولى ، وليس كل حافظ مما يقود إلى عمل تاريخى ،

وليس كل حافظ مما يمكن أن تلهمه العبقرية إلى عمل تاريخي ،
فقد يوجد الحافظ ولا توجد العبقرية التي تسنده للقيام بعمل
تاريخي وقد توجد العبقرية ولا يوجد الحافظ الذي يقود إلى عمل
تاريخي ، إذ يكون الحافظ في هذا المجال قاصرا لا يصل بصاحبه
إلى تلك الآفاق الرحبة التي تسع الحياة جميعا وتقود إلى العمل
التاريخي ، فإذا امتد الحافظ إلى تلك الآفاق الرحبة التي تسع
الحياة جميعا دون أن تلهمه العبقرية ويقوده الذكاء ، كان الفشل
رائده وأورث صاحبه مرض العظمة الكاذبة أو الانطواء
النفسي .

وفي الحافظ تتحدد إرادة الإنسان ، حيث يستبين امتداد
خوافزه ، فتتحدد إرادته ويتحدد سلوكه وفقا لهذا الامتداد ،
بل وكثيرا ما تتحدد معالم شخصيته وفقا لذلك أيضاً وخاصة
بين الساسة ورجال الحكم ممن يفرض عليهم اتصالهم بال جماهير
نوعا من السلوك المحدد ، والفضائل المعينة التي تستهوي تلك
ال جماهير .

فالبحت عن الحافظ في حياة صاحب السيرة هو مطلب
كاتب السيرة حتى يستطيع أن يجلو تلك السيرة على حقيقتها
ويعرضها سافرة واضحة القسيمات أمام التاريخ .

الموهبة والحافز :

وغالبا ما تسبق الموهبة الحافز في مجال النشوء والارتقاء ،
بمعنى أن الموهبة توجد أولا ثم يعقبها الحافز ، أو أن الحافز
هو رد الفعل للموهبة ، ويتحتم علينا تبعا لذلك أن نتقصى
الموهبة في كتابة السيرة قبل أن نتقصى الحافز . إلا أن الموهبة
لا ترد إلى عمل مالم يدفعها حافز ، والحافز هو القوة الفعالة
التي تحرك صاحب الموهبة ، والحركة التي ترد إلى عمل هي التي
تعنى المؤرخ ، ولا تغنيه الموهبة إلا من حيث العمل الذي
نم عنها ، وهي في النهاية عند المؤرخ وصف لهذا العمل ، فيقال
شاعر عبقرى وسياسى محنك وحاكم قادر وقصاص بارع وكاتب
لماح ومخترع ماهر . . . الخ .

وقد يقال إن الموهبة قد تعبر عن نفسها فتلج بصاحبها رحاب
التاريخ دون أن يسبقها حافز ، فالشاعر الذي ينظم قصيدة رائعة
ينخلدها التاريخ ، والروائي الذي يكتب قصة تبقى على الزمن ،
ومكتشف الميكروب حين يحفظ له التاريخ هذا الكشف
ويحمده له ، وغير هؤلاء ممن تحملهم مواهبهم إلى آفاق رحبة
من المعرفة والكشف عن المجهول أو السعى وراء الحقيقة والخير

والجمال ، كل هؤلاء كانت الموهبة هي القدرة البارعة وراء العمل التاريخي الفذ ، وهي التي تكون الحافز وتدفعه للتعبير عنها وخاصة عند الفنان ، فكثيرا ما يبدو الفنان وليس لديه حافز إلا التعبير عما يجول بخاطره أو إبرازه في صورة من الصور الفنية العديدة للفن ، بينما يبدو العالم أو المكتشف وقد تكونت لديه فكرة هي في الواقع نتاج تلك الموهبة التي تميز بها . وتظل تلك الفكرة تلح عليه حتى يجلوها أو يكشف عما يريد منها ، كما أنها غالباً ما تكون نتيجة دراسة سابقة ، فكريستوفر كولمبس مكتشف أمريكا قد تصور من إدراكه لكروية الأرض إمكان الانطلاق من نقطة والعودة إليها بالسير في خط مستقيم ، فإذا كان السير شرقا يصل بنا إلى الهند والشرق ، فإن السير غربا لا بد وأن يصل بنا إليها ، ولم يكن في خاطره أنه اكتشف قارة جديدة أو أرضاً جديدة هي غير ما قصد ، فحين حملته الدراسة إلى فكرة حقيقية حفزته تلك الفكرة إلى العمل الذي قام به ، حتى وإن قاده الفكرة إلى كشف لم يجلب بخاطره ، بل إنه ظل طوال حياته لا يدري أنه كشف عالماً جديداً ، فالحافز قد حمله على عمل معين انتهى إلى نتائج أخرى من قبيل المصادفة ، وإن لم تهدم تلك المصادفة صحة الفكرة التي حفزته إلى العمل لتحقيقها .

ولكن الدراسة لا يمكن أن تقوم على الجهد وحده دون
الموهبة ، فالموهبة لدى العالم أو المكتشف هي الحافز للعمل ،
كما هي الحافز للتعبير الفني لدى الفنان ، وطبيعة هذا الحافز
هي التي تعنى كاتب السيرة حتى يتبين الملاحح الحقيقية للسيرة التي
يترجمها ، وقدر العمل الذي قام به بين وقائع التاريخ فتكون
السيرة صورة صادقة لحياة صاحبها ، فالحافز هو الذي يقف وراء
العمل والموهبة هي التي تحدد إطاره .

العمل :

والعمل الذي يؤدي إلى ما نسميه بالواقعة التاريخية لابد وأن
يتميز بالجهد والمثابرة ، فإذا أبعدنا عنصر المصادفة في السيرة نجد
أن العمل هو الذي يحدد الإطار العام للواقعة التاريخية ، هذا على
اعتبار أن العمل قد تم فعلا وأن الواقعة حدثت وتأكد المؤرخ
من وقوعها ، فإذا انتقلنا من مرحلة التمهيد التاريخي إلى
مرحلة اليقين فإننا أمام عمل تمثل في واقعة تاريخية ، وهذا العمل
هو الذي نتقصاه في سيرة البطل أو ننتظره من الشخصية التاريخية
بمعنى أن الفرق بين الشخصية التاريخية والشخصية العادية
أو اللاتاريخية كما يمكن أن نسميها ، هو الفرق بين العمل الذي

يؤدي إلى اكتمال واقعة تاريخية — والواقعة التاريخية لا تكون إلا مكتملة على الدوام ، إذ أن عدم اكتمالها لا يؤدي إلى قيامها — والعمل العابر المتواتر في حياة الإنسان ، فهذا العمل العابر المتواتر في حياة الإنسان أو حتى الإنسان البطل لا يكون حدثا تاريخيا وبالتالي لا يؤدي إلى قيام الواقعة التاريخية .

فالعمل الذي يعنى المؤرخ بتقصيه هو العمل الذي يكون حدثا تاريخيا ويؤدي إلى اكتمال الواقعة التاريخية .

والذي يعنينا من العمل في كتابة سيرة من السير هو هذا العمل الفذ الذي عمله صاحب السيرة وحمله إلى رحاب التاريخ وميزه على غيره من البشر ، إذ أن التاريخ لا يعنى بغير المتميزين الذين تركوا طابعهم على صفحاته .

وهذا العمل هو الذي يحدد الطابع الخاص لشخصية السيرة أو الصفة التاريخية المميزة لها ، فتلك سيرة كاتب أو شاعر أو مفكر أو محارب أو رجل من رجال السياسة والحكم أو فاتك أو قرصان أو نائر ، فالتاريخ لا يفرق بين شخصه إلا من حيث الحكم على أعمالهم وتأثيرهم في التاريخ ، وكلما امتد هذا العمل أو عظم التأثير كلما احتلت السيرة صفحات أوسع من مدونة التاريخ .

وقد نعرض فى السيرة لكثير من الأعمال العابرة أو المتواترة فى حياة البطل ، ولكننا لا تتناولها لذاتها ولكن لما تعكسه من صورة البطل وخلاله التى تؤثر فى حوافزه أو تكشف عن لمحات من مواهبه الفذة التى ميزته على غيره . وقد يعرض المؤرخ لكثير من التوافه فى حياته حتى وإن لم تعكس شيئاً من صورته المتميزة ، وهنا يسمى المؤرخ جاهداً وهو يأمل أن يكشف عن جانب من جوانب شخصية البطل ، أو أنه يغرم بالطرائف التى تجذب انتباه الناس وإقبالهم على قراءته ، فيوغل فى استقصاء النزوات العابرة ، أو المغامرات العاطفية ، أو ألوان الشذوذ والمباذل ، إذا كان ثمة شذوذ أو مباذل تستثير الناس أو تستهوى غرائزهم أو تكشف عن نوع من الضعف الإنسانى . ولكن الذى يعنى به التاريخ هو فى الحقيقة ذلك العمل العظيم الذى تميز به البطل وترك أثره البالغ على صفحة الزمن ، فالأنبياء والرسل من إبراهيم وموسى فمحمّد عليهم السلام أجمعين ، هم أصحاب الرسالات السماوية التى تركت أعظم الأثر فى تاريخ الإنسانية ، ولن يكونوا غير أنبياء أضفت عليهم النبوة كل جلال فى التاريخ مما تتقصاه من خلالهم وصفاتهم ، وتحتمس هو بطل الامبراطورية المصرية القديمة ، حتى ليتوارى تحت اسمه

كل أسماء الأحمسة الآخرين مهما قيل من اعتدائه على آثار من سبقوه ، ويوليوس قيصر هو فاتح بريطانيا والغال ، وصاحب الملحمة الباهرة في التاريخ الرومانى ، ونابليون سيقى نابليون أعظم عبقرية عسكرية في التاريخ مهما روى التاريخ من مغامراته العاطفية .

وهذا العمل كما قلنا هو ثمرة الحافز أو الموهبة أو هما معا . وقد يكون وليد المصادفة أو التصميم ، ولكنه فى كليهما لا يعوزه الحافز ولا يخلو من الموهبة ، فالمصادفة حين تدق أبواب الحظ للرجل العظيم ، لا بد وأن تنخيره من ذوى المواهب الفذة ممن يحملهم الحافز إلى غوارب المجد ، فإن دقت المصادفة أبواب الحظ لحامل من الحمل لا تلبث على بابه طويلا ، ولكن لتعبه إلى غيره من ذوى الهمم والمواهب ، فمن المؤكد أن تجربة جيمس وات قد مرت بالملايين من قبله ، ولكن جيمس وات وحده هو الذى اكتشف قوة البخار ودق بهذا الاكتشاف أبواب عصر جديد . وقد ينتهى التصميم إلى غير ثمرة فيعبر به التاريخ لا يلتقى إليه بالا ، إذ لا يحفل التاريخ إلا بما حدث فعلا وأثر فى سيره ولا يعنيه أن يتبع محاولات الفشل والنجاح ما لم تثمر حدثا تاريخيا .

الزمن والمكان :

وحين نحدد الحافز أو الموهبة في حياة صاحب السيرة ،
نبحث عن العوامل التي كونت هذا الحافز فنعود بالسيرة إلى
الإطار الذي نشأت فيه ، ويتحدد هذا الإطار بالزمان والمكان ،
فالزمان هو مدى الوقت الذي تمتد فيه حياة أو عمل من حدود
الزمن السلي . والمكان هو البيئة أو المجتمع الذي امتدت فيه
تلك الحياة ، وهذا العمل من حدود البيئة العالمية ، حياة الإنسان
كغيره من مخلوقات الله تتحدد بزمن معين أيضا ، وفي هذا
الزمان المحدد ، وفي تلك البيئة المعينة ، يثمر الحافز في حياة الفرد
عملا تاريخيا ويلج به رحاب التاريخ ، وقد لا يثمر ذلك الحافز
مثل ذلك العمل في زمن آخر أو في بيئة أخرى .

فالزمان والمكان يلعبان دورها أيضا وفي غاية البراعة في
تأهيل الفرد للعمل التاريخي ، تلك البراعة التي تضع أصحاب
المواهب في زمن يتفق ومواهبهم تلك ، أو على حد تعبير « جيبون »
« يجب أن تكون الأزمنة ملائمة للمواهب غير العادية وما علينا
إلا أن نتخير شخصية من الشخصيات التاريخية ونقيسها على زمنها
ثم نقيسها على زمن آخر ، فلربما لقها ذلك الزمن الآخر في طوايا

الحمول والنسيان ، وتعنى «ربما» أن ذلك الزمن الآخر قد يكون موافقاً لها ، وهذا فرض لا تصدقه الحقيقة الواقعة كثيراً ، فمن العسير أن تتشابه الظروف في زمنين متباينين ، ولربما انتهت على هذا القياس عبقرية « كرومويل » أو « خالد بن الوليد » أو « صلاح الدين الأيوبي » إلى ما تنتهى إليه حياة العمل من الناس ، وتأتى « ربما » أيضاً فى هذا المعنى دلالة على التحفظ ، فليس من العسير أن تثمر عبقرية كرومويل وصلاح الدين الأيوبي وخالد بن الوليد فى ميدان آخر غير الميدان الذى انفردوا فيه بالتفوق والبروز .

التاريخ لا يعبر نفسه :

ومن العبث أن يقال إن التاريخ يكرر نفسه ، أو أن « لا جديد تحت الشمس » ، فكل زمن طابع يميزه ، وحوافز تتعلق به ولا تتعلق بغيره ، والبيئة أو بلفظ أدق المجتمع يتجدد على الدوام ولا يمكن أن يكون فى حالة ثبات يملئ عليه حوافز لا تتغير ، وكثيراً ما تبدو عملية التطور للنظرة العابرة خلقاً جديداً فالإنسان هو الإنسان ، ولكن إنسان النيندرتال غير الإنسان الذى يعيش فى عصر الآلة ويخترق أجواز الفضاء ، وقد تكون المفارقة هنا بعيدة فالإنسان النيندرتال إنسان غير تاريخي بالمعنى

الذى نقصده من التاريخ ، فإنه أدخل فى تاريخ الأحياء والتطور منه إلى التاريخ الإنسانى ، أو بعبارة أخرى هو إنسان ما قبل التاريخ ، وهو غير الإنسان التاريخى الذى يعنينا فى مضمار العلوم الاجتماعية ، وقد تبدو المفارقة أدق إذا قلنا إن إنسان عصر الأهرامات فى الدولة القديمة غير إنسان الدولة الحديثة فى تاريخ مصر ، أو أن إنسان الأكربول غير إنسان اليونان الحديثة .

والقوى التى سيطرت على الماضى غير القوى التى تسيطر على الحاضر أو المستقبل ، فهما قيل من أن الطبيعة الانسانية لا تتغير — على الأقل فى كثير من الغرائز والنزعات التى تبدو ثابتة كغرائز الجنس وحب السيطرة والتملك والمقاتلة — إلا أن هذه الغرائز تخضع دائماً للتطور الحضارى للمجتمع .

ومصدر الخطأ فى تلك القالة أن أحداث التاريخ من حيث التعميم تبدو متشابهة ، فالإنسان يسعى إلى منفعة نفسه ، ويخوض فى سبيل ذلك كثيراً من المعارك ، وينزل فى أغلب الأحيان على حكم أوضاع قاهرة تدعوه إلى تأمين حياته ، بل إنه لينزل عن كثير من حاجياته وحرية لتأمين وجوده الفردى فى ذاته ، ووجوده الكلى باعتباره عضواً فى جماعة ينتسب إليها ، ويمر فى سبيل ذلك بالعديد من التجارب .

ولكن هذه التجارب الإنسانية التي يمر بها الفرد أو المجتمع لا يمكن أن تتكرر كما يقول « كارل بوبر » في كتابه — عقم المذهب التاريخي — حتى تحت ظروف متماثلة تماماً ، لأن التكرار يؤدي إلى خلق تجارب جديدة ، ولأن العوامل التي خضعت لها التجربة الأولى تكون قد تغيرت عند تكرار التجربة ، فالتكرار نفسه تجربة جديدة ، ولما كان التكرار يؤدي إلى خلق حادات جديدة ، فإنه بالتالي يؤدي إلى تولد ظروف جديدة مما لا يجوز معه أن نتكلم عن تكرار بالمعنى الدقيق ، ثم إن الفرد يتعلم من التجربة ، فإذا خاض نفس التجربة في نفس الظروف التي خضعت لها التجربة الأولى بحذافيرها ، فإن عاملاً جديداً يتدخل في الموقف وهو ما تعلمه الفرد من تجربته الأولى .

فالتكرار الحقيقي ممتنع إذن ، ولا يمكن للتاريخ أن يعيد نفسه على نفس المستوى الذي تم عليه في الماضي ، وعلينا أن نتوقع على الدوام تجارب جديدة في جوهرها ، وخاصة إذا تولد عن التكرار أحداث تاريخية هامة .

الزمع والمحرك التاريخي :

ولذلك فإن سيرة الشخصية التاريخية هي النتاج الحقيقي الرائع

للتفاعل بين الزمان والمكان معاً ، وقد قلنا إن الزمان هو مدى الوقت الذى تمتد فيه حياة أو عمل من حدود الزمن الكلى ، إلا أن الزمن يتفاوت طويلاً أو قصيراً بالنسبة لامتداد حياة الشخصية كما هى بالنسبة للحدث التاريخي ، فالامتداد الزمني للشخصية التاريخية مساو للامتداد الحقيقي لحياته ، حتى إذا اقتضت أعماله التاريخية على فترة معينة من امتداد عمره ، فإننا فى حاجة إلى دراسة الحوافز التى أدت به إلى القيام بدوره التاريخي فى الفترة السابقة من عمره على تلك الفترة التى قام فيها بهذا الدور التاريخي ، وتمدنا نشأته الأولى بذخيرة لا تنضب من الأحداث التى تعيننا على التحليل والاستقراء بحيث نستطيع أن نصل إلى تعليل واضح للدور التاريخي الذى قام به .

ولكل حدث امتداده الزمني أيضاً ، وتزداد أهمية هذا الحدث كلما ازداد تأثيره فى الحاضر وامتد إلى المستقبل ، وإن لم يكن من عمل المؤرخ أن يمد بصره إلى المستقبل أو يتنبأ بما يمكن أن يحدث ما لم يفسد موضوعية التاريخ ، فضلاً عن أنه بذلك التنبؤ بحوادث المستقبل يحول دون وقوعها . وإن كان هذا لا يحول أبداً دون امتداد تأثير الماضى على الحاضر

أو المستقبل ، فإن الحدث التاريخي حتى وإن لم يستكمل حدوده فإنه على الأقل يترك أثراً ما لا نستطيع أن نحدده ولكننا لا نكرر وجوده ، فهل كنا نستطيع أن نقول إن الحرب العالمية الأولى قد تركت أثراً لا بد وأن تنتج عنه حرب عالمية ثانية إتنا لا نستطيع أن نقول ذلك ، فإن فيه جزءاً بوقوع حرب عالمية ثانية ، ولكننا نستطيع أن نقول إن الحرب العالمية الأولى لم تحل المشكلة التي قامت بسببها ، وأنها خلقت أثراً يهدد السلام . هذا ما يمكن لنا أن نقوله ، ولكننا لا نستطيع أن نتنبأ بوقوع تلك الحرب أو تحديد موعدها ، ولكنها حين وقعت أصبح في قدرتنا أن نربط بين الأثر والنتيجة ، ونقول إن أخطاء معاهدة فرساي كانت سبباً في قيام الحرب العالمية الثانية ، هذا لأن الصورة قد تحددت تماماً ، وأصبح من اليسير أن نحكم عليها حكماً تاريخياً على ضوء الواقع الذي حدث فحسب ، لأننا نستطيع أن نقول بعد ذلك إن معاهدة فرساي حتى وإن سادتها روح العدل والتسامح ، ما كانت لتمنع وقوع الحرب ما دامت ألمانيا تتطلع إلى تحقيق مجالها الحيوي على حساب غيرها ، وما كان هذا التسامح إلا معجلاً لقيام الحرب لأنها حينذاك تستكمل عدتها للحرب بأسرع مما استكملتها وهي مكبلة بقيود معاهدة فرساي .

والحدث التاريخي يمكن أن يمتد ، ويمتد إلى ما لا نهاية ،
ما دامت التجربة القديمة تؤدي إلى تجربة جديدة لا نتبين معالمها
قبل أن تقع ، ولكنها حين تقع نستطيع أن نلاحظ الأثر الذي
أدى إليها ، والذي يربطها بالتجربة السابقة ، وهذا ما نعتبر عنه
« بالتماسك التاريخي » ، فالتاريخ يتكون في الواقع من تلك
الجزئيات التي نسمى كلا منها حدثا تاريخيا ، وهذا الجزء هو
الذي يتأتى لنا أن نحدد امتداده الزمني ، أما الكل فإنه يسبح
مع الزمن في لا نهائية مطلقة ، ومع ذلك فإنه يتحدد بالحاضر
الذي نعيشه ، إلا أن انطواء هذا الحاضر يدفعه إلى عالم الماضي ،
بينما يمتد الزمن في حدود التاريخ ويمضي به قدما إلى ما لا نهاية .
فالزمن إذن عامل حاسم في تحديد الشخصية التاريخية ،
وفي تحديد الواقعة التاريخية وتوجيهها على حد سواء .

الفرد والواقعة التاريخية :

ولكن أيهما أجدر باهتمام المؤرخ : أهو العمل أم الشخصية ؟
أو بمعنى آخر أهو الواقعة التاريخية أم الفرد ؟
ويمثلنا هذا على تحديد ماهية التاريخ ، فالتاريخ كما يقول

« بوركار » هو « تسجيل ما يراه عصر جديرا بالذكر
في عصر آخر » .

ومعنى ذلك أن التاريخ يقصر همه على كل ما هو جدير
بالذكر من عمل الأفراد والجماعات ، وما كل حدث أو عمل
جدير باهتمام التاريخ ، وإنما الجدير بذلك هو الحدث أو العمل
الذى يترك أثرا فى الحياة ، وهو ما دعونا بالآثر التاريخى
كما دعونا العمل المؤثر بالحدث التاريخى ، فليس كل عمل أو حدث
مما يعد حدثا تاريخيا ، وليس لكل عمل أو حدث من الآثر
فى الحياة الإنسانية ما يدعونا إلى تسميته حدثا تاريخيا .

إذن فالحدث التاريخى هو الذى يعنى به التاريخ ، إلا أن هذا
الحدث التاريخى هو من عمل الفرد ، هذا الفرد المتميز الذى
دعونا بالشخصية التاريخية . وإذن فالشخصية التاريخية هى التى
يجب أن يعنى بها التاريخ ، وبذلك تتوارى أهمية الحدث التاريخى
وراء الشخصية التاريخية ، ولكن التاريخ كما نعرف ما هو
إلا تسجيل لأحداث تاريخية هو الذى يراها بوركار « جديرة
بالذكر فى عصر آخر » أو « هو التدوين القصصى لأحداث
العام كله أو بعضه كما » يقول « هيرنشو » ، وعلى ذلك فإن
الحدث التاريخى هو الذى يبرز أهمية الشخصية التاريخية .

فإذا تناولنا سيرة شخصية تاريخية فإنما نتناولها على ضوء الأعمال التي قامت بها ، والتي جعلت منها شخصية متميزة تجذب اهتمام التاريخ من بين الملايين من الشخصيات التي لا يفتنى بها ولا يلتقى إليها بالا .

وإذن فالشخصية التاريخية هي المحور الذي تدور حوله أحداث التاريخ ، ولعل هذا هو ما حمل تيلور على ادعاء « أنه يمكن كتابة تاريخ أوروبا بالكتابة عن ثلاثة أفذاذ هم نابليون وبسمارك ولينين » وبهذا يحمل التاريخ وقرا لا يحمله .

فالتاريخ لا يمكن أن يكون من صنع فرد وحده مهما أوتي هذا الفرد من هبات العبقرية والنبوغ ، إلا إذا أهملنا عنصرى الزمان والمكان ، فكم من همل ارتدوا مسوح العظماء وساروا يختالون في لباس الشخصيات التاريخية البارعة ، لأن ظروف الزمان والمكان قد حملتهم إلى القمة دون أن يكون لهم من مواهب الأفذاذ نصيب ، وهو ما أشار إليه « ماركس » بقوله « لقد خلق الصراع الطبقي في فرنسا ظروفاً يسرت لكثير من غمار الناس أن يمشوا بخیلاء الأبطال وأرديتهم » ، وبالعكس يمكن أن نقول إن نابليون لو جاء في غير الثورة الفرنسية

لما أصبح امبراطورا ، ولما أتيح له أن يخوض تلك المعارك
التي خلدت مجده العسكري ، وهو افتراض تبدو سخافته للوهلة
الأولى ، فإن نابليون لن يكون في تلك الحالة نابليون
الامبراطور ، ولن يكون قائد المعارك البارع ، وربما جهله
التاريخ تماماً ، ولكننا حين نكتب عن الحمل الذين مشوا
في أردية الأبطال ، أو عن الأبطال الحقيقيين ، فإننا نكتب
عن شخصيات تاريخية قد قامت بدور في التاريخ ، وهو دور
لا يستطيع التاريخ أن يتجاهله مادام دوره أن يسجل مجرى
الأحداث في العالم كله أو بعضه كما يقول « هيرنشو » ، وكل
ما يمكن أن يقوم به المؤرخ متحرراً بعض الشيء من وقر
الأحداث ، هو أن يوازن بين تلك الشخصيات التاريخية ويحكم
لها أو عليها ، فإنه حينذاك يعطى لنفسه الحق في أن يعبر عن
ذاته في حكمه على تلك الشخصيات وفقاً لتفكيره ومثله ، فإن
كارثة حملة نابليون على روسيا قد تجرده عند بعض المؤرخين
من كل مجد عسكري ، في حين أنها لدى البعض الآخر لا يمكن
أن تحجب عبقريته العسكرية التي أحرز بها انتصار مارنبجو
وأوسترلتز .

المؤرخ والحركة التاريخية :

ويختلف الحكم على الشخصيات التاريخية من مؤرخ إلى آخر ، ولكن ليس من حق أى مؤرخ أن يتجاهل حقيقة الحدث الذى تم وثبت وقوعه وإن أباح لنفسه بعض الحرية فى التعبير عن ذاته كمؤرخ فى الأحكام التى يوقعها على شخصياته التاريخية ، فالمؤرخ بوصفه فرداً كما يقول « ادوارد كار » هو من نتاج التاريخ والمجتمع ، وعلينا قبل أن ندرس تاريخاً قام به مؤرخ ما ، أن ندرس بيئته التاريخية والاجتماعية ، فبعد الرحمن الرافعى حين كتب تاريخ مصر الحديث ، كان متأثراً ولا ريب بعاطفته نحو الحزب الوطنى ، وبإيمانه العميق بزعيمه مصطفى كامل ومحمد فريد ، وما من شك فى أن إيمانه ذلك بنى أساساً على تقدير واع منه للعوامل التاريخية التى مر بها زمنه وبيئته ، وماتركته من أثر بالغ فى تكوين شخصيته ومثاله الوطنية ، وعباس العقاد فى كتابته لسيرة سعد زغلول ، لم يتحرر إطلاقاً من تلك العاطفة التى حملها لزعيم ثورة سنة ١٩١٩ ، هذا فضلاً عن تأثره العميق بالروح التى سادت عصره وأفكاره التى تكونت نتيجة لهذين العاملين ، عاطفته نحو سعد زغلول ،

ثم الوطنية التي غلبت على زمنه وبيئته . فإذا انتقلنا من سيرته
لسعد زغلول إلى عبقرياته نلمس إحساس المؤرخ بالعمل العظيم
للشخصية التي يكتب عنها ، فالعمل العظيم هو المحور الذي تدور
حواليه أمجاد عبقرياته ، وهذا الإحساس بالعمل العظيم هو السمة
المشتركة بين سعد زغلول الذي عرفه وتأثر به عن قرب ،
وعبقرياته التي عرفها من صفحات التاريخ ، ولا يصدر العقاد
في اتجاهه هذا إلا عن كوامن ذاته ومقومات شخصيته ،
فهو رجل شق طريقه إلى المجد بجهد ونبوغه ، فلا غرو أن
كان العمل العظيم لديه سمة شخوصه التاريخية ، والمؤرخ
الإنجليزي « ا . هـ . ل فيشر » في كتابته لتاريخ أوروبا قد غلبت
عليه روحه التوتونية العريقة ، فصاغ التاريخ الأوربي بأجاد
التوتون القدرية المغامرة ، ورسالة الامبراطورية البريطانية
المقدسة في نشر الحضارة والتمدن الأوربي ، وقد عاصر فيشر
قمة ما وصلت إليه امبراطورية بلاده من مجد .

فالمؤرخ كفرد ليس إلا ظاهرة اجتماعية أيضا . وهو نتاج
المجتمع الذي ينتمى إليه وهو الناطق الشعوري أو اللاشعوري
بلسان عصره — كما يقول إدوارد كار — وحين يتابع أحداث
الماضي فإنه يتحرك مع موكب التاريخ أينما كان ، ويسخر فكره

ومثله وآراءه فضلاً عن جهده في البحث العلمي لنقل صور الماضي إلى الحاضر ، وهذه الصور هي التي تعيننا من بحثه الشاق ، وقد لا يكون لأفكاره تأثير علينا إلا بقدر ما نجد صداها في نفوسنا ، وكل ما نبغيه هو أن نصل إلى قاعدة عامة للتدوين التاريخي تتألف فيها القوى الفردية والاجتماعية التي تخط سير التاريخ ، حتى تبين الأسس التي تقوم عليها كتابتنا لسيرة شخصية تاريخية ، فنذ زمن بعيد كان سحر الشخصية التاريخية يطنى على ماعداء من فعل القوى الاجتماعية التي تحدد في الحقيقة سير التاريخ ، والتي تضاف على الشخصية التاريخية بهاءها ونفارها وهذا ما حمل « تيلور » على القول بأن تاريخ أوربا يمكن كتابته بالكتابة عن نابليون وبسارك ولينين ، وقد تناسى تيلور أن كلا من هؤلاء يمثل ظاهرة اجتماعية شملت أحداث عصرها وأثرت فيها ، أو أن كلا منهم يمثل مرحلة من مراحل التطور الفكري للقوى الاجتماعية في عصره ، ومن خطأ القول أن نقول إن كلا منهم — شأنهم في ذلك شأن أية شخصية تاريخية أخرى — ما هو إلا شخصية مفردة تملأ ذاتها على التاريخ ، لأننا إذا قلنا ذلك فإننا نجمد دور الجماعات التي تقف وراء الشخصية التاريخية ، والتي تعبر هذه الشخصية التاريخية

عن إرادتها فعلا بل إن سر عظمتها هو في قدرتها على التعبير عن تلك الإرادة الجماعية ، أو على حد تعبير هيجل « إن الرجل العظيم هو من يستطيع أن يصوغ في كلمات إرادة عصره ، وأن يبلغ عصره إرادته ، وأن يعمل على تحقيقها ، ويكون ما يعمله ممثلا لجوهر عصره وما هيته » .

البطل في التاريخ :

وقدرة الفرد على أن يصوغ إرادة عصره وأن يعبر عنها ويبلغها ويجعلها حقيقة واقعة لدى الجوهر الحقيقي للشخصية التاريخية ، أو للعظمة والبطولة في مدلولهما التاريخي ، وهما اللفظان السائدان لنعث الشخصيات التاريخية أو بعضها وإن كنا لا نميل إلى استخدامها ، فالشخصية التاريخية أشمل وأعم ، بينما نعث البطولة أو العظمة لا يستحقه غير القلائل من تلك الشخصيات التي يلم بها التاريخ .

وقد لا نختلف كثيرا في تعريف العظمة فيينا يراها « هيجل » في القدرة على إدراك إرادة العصر والتعبير عنها ، يراها « كارليل » « عقلا يعرف به العظيم حاجة عصره ، وعزما يعضى به في إبلاغ العصر إرادته » ، ويراها « ليفيس » عندما يصف عظماء

الكتاب « بانهم القادون على خلق وعى إنسانى » ولا يشذ
« إدواركار » عن ذلك حين يصف الرجل العظيم « بأنه يمثل
شيئا على الدوام ، فهو إما يمثل القوى القائمة فعلا أو القوى التى
يساعد على خلقها » .

فإذا أرادنا بالشخصية التاريخية من تتصف بتلك النعوت جميعا
فإننا إما أن ندمت كل شخصية دخلت التاريخ بالبطولة والعظمة ،
وإما أن نقصر تلك النعوت على من يستحقونها ونجرد غيرهم منها ،
فلا نرى فى حشد التاريخ غير عمالقة وأقزام وهم جميعا على المسرح
شخص قائمة وإن اختلفت هالات النور التى تشع من حولهم .
وهنا يتحتم علينا فى كتابة السير التاريخية أن نختار من تلك
الشخص المعبها وأبهاها ، أو بمعنى أدق تلك الشخص التى
حوت معانى العظمة وكان لها تأثير فعلى فى عصرها يحملنا
كمؤرخين على الاهتمام بها .

فإذا اخترنا سيرة نكتب عنها فإن اختيارنا لها يقوم على
تقدير واع منا للدور التاريخى لصاحبها ، وهذا التقدير فى عرف
المؤرخ هو فى إحساسه بالآثر الإنسانى الفعال لمن يكتب سيرته .
وهنا تختلف مراتب العظمة ويختلف حكمنا عليها ، فمن
العظماء من صعدوا إلى العظمة على ظهر قوى قائمة فعلا ، كخوفو

وهانيبال وقيصر وجنكيزخان ونابليون وبسارك ، ومنهم من نالها عن طريق القوى التي يعمل على خلقها مما يحمله كثيرا على تحدى السلطة القائمة ، كالأنبيا وأصحاب الرسالات والمفكرين والثوار ، ومنهم من اتصف بها لأنه بذ غيره في موهبة من المواهب الإنسانية كالخترعين والشعراء والعلماء والكتاب .

وهنا نختلف أيضا في تقديرنا للمعظمة ، فأى هؤلاء أحق بإجلال التاريخ وتقديره ؟

فإذا كان للتاريخ أن يحكم على أقدار شخصه ، وهذا هو بحق جوهر الدراسات التاريخية ، أو جوهر علم التاريخ ، فإن أعباء المؤرخ تتضاعف وتثقل مسئوليته أمام الضمير الإنساني ، « فالتاريخ عليه أن يحررنا — كما يقول « لورد اكتورن » — لا من التأثير غير المناسب للأزمة الأخرى فحسب ، بل من التأثير غير المناسب لزمنا أيضا ، حتى من طغيان البيئة وثقل الهواء الذي تنسمه » ، بل إن عليه أكثر من هذا أن يحس إحساساً عظيماً عميقاً باختلاف الأزمنة والأمكنة في الماضي وفي الحاضر وبين الماضي والحاضر أيضاً ، والمؤرخ حين يخلق في أجواء سامقة من التسامح والعدالة ، فإنه يحرر نفسه من أثقال البيئة ومن وقر الزمان والمكان ، ويرتفع بنفسه

فوق ذروة عالية يطل منها على أحداث التاريخ فلا ينشد منها
غير الحقيقة ، ولا ينبغي من ورائها غير الخير والجمال .

وفي هذا يبدو المؤرخ متطورا مع الزمان والمكان ،
بل إن عليه في هذا أن يحرر نفسه من كل تأثير لا يلائم السكّال
الذى تنشده الإنسانية ، فلا يشده مكانه ولا يشده زمانه شدا
يقع فيه أسير التأثير غير المناسب لزمانه ومكانه فيتردى في حمأة
التحيز غير المنصف لأحداث التاريخ ، ولا يستطيع أن يقوم
برسالته السامية في تحرير الإنسانية من جودها وتعصبها .

وفي تقدير المؤرخ للدور الذى يلعبه البطل فى التاريخ حكم
صريح على مكانة هذا البطل بين مراتب العظماء ، وحين يتحرر
المؤرخ من التأثير غير المناسب لزمانه ومكانه يكون تقديره
لعظمة البطل تقديرا منصفا .

وقد يرى المؤرخ أن دوره ليس هو الحكم على الأحداث
والأبطال ، وإنما دوره أن يدون الأحداث ولا يعرض لها
بتحليل يصل به إلى إدراك طبيعة الأحداث والحكم عليها ،
وحين يقف المؤرخ عند هذا الحد ، يفقدنا القدرة على تحرير
أنفسنا من التأثير غير المناسب للزمان والمكان ، فإن قدرة

الإنسان على التسامى فوق موقفه التاريخي لا تكتمل ما لم يكتمل
إحساسه بالموقف التاريخي .

و حين يكتمل إحساس المؤرخ بالموقف التاريخي يستطيع
أن يرى من العظماء من هو أحق بإجلال التاريخ من غيره
وفي هذا يتمايز الحكم على أبطال التاريخ وفقا لإحساس المؤرخ
بأحداث التاريخ .

المؤرخ كالبطل ظاهرة اجتماعية :

وقد تجرد المؤرخ بهذا من فرديته ، إلا أن المؤرخ كغيره
من الناس ليس فردا بقدر ما هو ظاهرة اجتماعية ، وفي كلا
الحالين عليه أن يتحرر من نوازع فرديته ومن ضغط مجتمعه
حتى يتكامل إحساسه بالموقف التاريخي ، فإذا اكتمل إحساس
المؤرخ بالموقف التاريخي فإنه يستطيع أن يصنع من كتابة
السير تاريخا طيبا ، فالسير التي تنظر إلى الإنسان باعتباره فردا
تصنع في العادة تاريخا رديئا ففيها يفعل المؤرخ بشخصية
صاحب السيرة أكثر من انفعاله بالموقف التاريخي الذي يحيط
بها أو ينجم عنها ، وفي هذا يقرر «لورد أكتون» قاعدة تاريخية
هامة حين يقول « ليس هناك في نظرة الإنسان للتاريخ ما هو

أكثر جوراً وإيغالا في الخطأ من الشغف المنبعث عن الشخصيات الفردية » ، وهو نفس الخطأ الذي تقع فيه حين نرى في الموقف التاريخي سلوكاً فردياً ، فهما تبهرنا عظمة الفرد لا نستطيع أن ننكر تلك القوى الاجتماعية التي تقف وراءه ، حتى ونحن نكتب عن دور الثائر في التاريخ فإنه قد يوحى بأن هناك تبايناً بين الفرد والمجتمع ، ولا نذهب في الرد على هذا مذهب « إدوارد كار » حين ينكر التجانس الاجتماعي ويرى المجتمع حلقة للمشاحنات الاجتماعية يعبر عن بعضها الثائر أو المنشق كما يجب أن يسميه ، بل نقول إن المجتمع قد يحس شيئاً ما ولكن الخوف الاجتماعي يحول بين الأفراد وبين التعبير عما في أذهانهم ، حتى يقوم الثائر فيواجه موجة النفاق الاجتماعي ويقف منه المجتمع موقفاً مضاداً بدافع الخوف من العواقب والحذر من مواجهة المجهول ، ولكن سرعان ما يؤكد الثائر بإصراره صدقه في التعبير عن الخلجات الكامنة في نفوس الأفراد ونزعات المجتمع اللاشعورية ، وحينذاك تتحطم غريزة الخوف عند بعض الأفراد فيشايعون الثائر ، وتغدو ثورته ظاهرة اجتماعية لنزعات مجتمعه ، وقد لا تتم الثورة في جيله وإنما تدركها الأجيال اللاحقة ، وهي التي تعي عظمته فيخلع

التاريخ عليه أردية الخلود ويضفي عليه بهاء وأمجاده .
وقد تتبع السيرة أسلوب الأدب حين تعطينا رواية تاريخية
تضفي على البطل كل أردية المجد والعظمة ، وتبعث في نفس
القارئ من الشوق والشفغف مالا تبعثه السيرة التاريخية ،
ولكن التاريخ لا يكتب قصة بقدر ما يكتب بحثا ، فالتاريخ
هو البحث في ماضى الإنسان بصفته ظاهرة اجتماعية ، أو بمعنى
أدق البحث في ماضى الإنسان في المجتمع .

ومهما كان شغف المؤرخ بسير العظماء فإن شغفه بها ينبعث
في الحقيقة من التأثير المتبادل بين العظيم وبيئته ، سواء كان هذا
التأثير في جيله أو في الأجيال اللاحقة لجيله ، ففي كل مجتمع
يوجد القائد والرائد والشائر ، كما توجد الجموع التي تشارك
العظيم مكانته التاريخية .

وأراني بعد هذا الاستطراد في حاجة إلى تحديد الإطار العام
لكتابة سيرة تاريخية فأعود مرة أخرى إلى صلة الأدب بالتاريخ ،
ولا أحب أن أكرر ما قلته من قبل ، وإنما أود أن أؤكد
حاجة المؤرخ إلى بلاغة الإنشاء وروعة الأسلوب الذي يصل
بالتعبير الساحر الخلاب إلى أصدق صور الموقف التاريخي ،
ولن يصل المؤرخ إلى غايته ما لم تواته القدرة على الوصف

والرواية مع دقة التعبير وسلامة الأسلوب وطلاوته ، ولعل هذا هو مبعث الخلط بين الفن والعلم في التاريخ ، فالتاريخ كمبحث علم وإن اختلف عن العلم التجريبي في طرائقه وموضوعه والتاريخ في كتابته فن يحتاج كما قلنا إلى منتهى براعة الكاتب التحرير حتى يبرز في الإطار اللائق به . ثم إن المؤرخ في كتابته للتاريخ يحس بالتفاعل المستمر بينه وبين وقائعه ، وهو إحساس لا يدركه عالم الرياضيات أو العلوم الطبيعية الذي يتصف بالحياد الجاف في تجاريه ، فإذا تجرد المؤرخ من إحساسه بوقائعه والانفعال بها ، فقلما يؤمن بها ، ومن ثم لا يدرك — كما يقول « ح . م ترفليان » — هذا الانفعال في غيره أبدا .

ولعل انفعال كاتب السيرة بسيرة من يكتب عنهم هو أقوى صور الانفعال التاريخي ، ولذلك فإن السيرة كثيرا ما تقترب من سمت الأدب كما يقترب كاتبها من سمت الأديب . ولعل هذا هو سبب القول « في أن السيرة تكتب تاريخا رديئا » .

وإذا كان الشغف المنبعث عن الشخصيات التاريخية — كما يقول « لورد اکتون » — مما يجور على نظرة الإنسان للتاريخ ، فإن براعة كاتب السيرة وحياده هما اللذان يجنبانه هذا الجور ، ولست أرى لذلك سببا إلا انفعال المؤرخ بشخصية

صاحب السيرة أكثر من انفعاله بالأحداث التي أحاطت به ،
والتي تمت على يديه ، ثم الحكم على الأثر التاريخي الناجم عنها
بعيدا عن الهالة التي تحيط به في زمنه والتي تبقى مشعة إلى أزمانه
أخرى لاحق ، ولا أحب أن أجرد المؤرخ من الإحساس
الذاتي الذي يحسه نحو البطل الذي يتمثله ، ولكن يجب ألا يطغى
هذا الإحساس على الحقيقة المجردة ، فقلما ، يكتب المؤرخ
سيرة دون أن يتفعل بهذا الإحساس الذاتي نحو شخصه التي
يكتب عنها ، وغالبا ما يكون هذا الإحساس منبعثا عن الإعجاب
بالبطل الذي يكتب سيرته . وقد اختار كارليل أبطال تراجعه
من بين الشخصيات التاريخية التي بهرته ، بل إن عنوان كتابه
« الأبطال » ليحمل كل سمات الإكبار لتراجعه ، وما كان يرى
التاريخ كما يقول إلا سيرة عظماء الرجال ، ولعله حين راح يبحث
عن صور العظمة لم يتمثلها إلا في صورة بطل ، واختار من هؤلاء
الأبطال من أوفى على قمة البطولة كما تصورها .

وبتعدد أبطال كارليل تتعدد صور البطولة فهذا البطل الإله
كما رآه في « أودين » رب الأرباب عند الفايكنج ، وهذا البطل
الرسول كما رآه في النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا البطل الشاعر
كما رآه في دانتي وشكسبير ، وهذا البطل القسيس كما رآه

فى لوتر قسيس البروتستانتية ونوكس قسيس المتطهرين
(البوريتان) ، وهذا البطل فى صورة كاتب كما رآه فى جونسون
وروسو وبارتز ، وهذا البطل فى صورة ملك كما رآه فى كرمويل
ونابليون ، ولم يكتب كارليل فى « أبطاله » تاريخنا بديعا وصادقا
فحسب ، بل كتب سيرا رائعة ، فلم تهره شخصية البطل قدر
ما بهرته أعمال البطل ، وكانت أعمال البطل وما تركته هذه
الأعمال من أثر تاريخى وحيه فيما أضفاه من إكبار وإعظام
على أبطاله .

فالسيرة يمكن أن تصنع تاريخا جيدا إذا استطاع المؤرخ
أن يزن التأثير المتبادل بين البطل والمجتمع الذى يعيش فيه ،
وأن يفعل بالأثر التاريخى كما يفعل بشخصية البطل وأعماله ،
وبقدر ما يكون إحساس كاتب السيرة بالزمان والمكان يكون
انفعاله بالبطل وأعماله .

وقد لا يكون الانفعال سارا ، وإن كان من العسير أن نحكم
على نوع الانفعال الذى تثيره السيرة فى كاتبها ، إذ قلما يتناول
المؤرخ سيرة لا تثير إعجابه ، أو تبعث الراحة إلى نفسه ، إلا أن
هذا يرجع بدوره إلى العوامل النفسية التى تحرك المؤرخ ، فمن
المؤرخين من تستثيره شخصية البطل المغامر أو الغازى الفاتح ،

ومنهم من تستثيره شخصية البطل في صورة إنسان ، أو تستثيره عبقرية العالم ومثابرته حين يضئ الليالي في الكشف عن قانون يطور العلم ويدفعه قدما إلى الأمام ، أو المخترع الذي يقدم للإنسانية اختراعا يعود عليها بالنفع ، ولقد قيل مرة إن الطبيب المجهول الذي اخترع الجبيرة أكرم على الإنسانية من كل من حفل بهم التاريخ من الغزاة والفاتحين .

ولهذا تعدد السير بتعدد اللون المحبب منها للمؤرخ وتعدد الأحكام التاريخية تبعاً لذلك ، والقارىء وحده هو الحكم فيما يقرأ وفيما يستهويه من تلك السير ، ولكن التاريخ يستوفى حاجته في كل حالة من تلك الحالات إذ يقصر همه على كل ما هو جدير بالذكر من ماضى الإنسان شراً كان أم خيراً .

وإذ كنا لا نحب أن نجرد المؤرخ من الإحساس الذاتى نحو شخوصه ، فلا تئنا لا نشجع لإحساسه إلا بقدر ما يتجاوب مع إحساسنا نحن أنفسنا ، وحين يقترب إحساس المؤرخ من إحساسنا أو إحساس الجماعة من الناس نقول إنه قد تجرد من الذاتية إلى الموضوعية وكتب تاريخاً جيداً ، ولا أعنى بذلك أن التاريخ يعبر دائماً عن إحساس الأفراد أو الجماعات » فالتاريخ لا ينحوض معارك — كما يقول ماركس — ولا يصنع شيئاً وإنما ينقل لنا

موقفاً تاريخياً يصوره المؤرخ فننفع به ، ولا يملك من إحساسنا قدر ما يملك من عقولنا ، فنحن لا نحس التاريخ بعواطفنا كما نحس الأدب وإنما ندركه بعقولنا فنحكم له أو عليه ، فإذا استثار عواطفنا فإن انفعالنا به لا يخلق تلك الآثار الدرامية التي ترقى بالإنسان إلى ذورة النقاء أو التطهر كما يرى أرسطو ، وإنما يخلق لدينا لوناً من الإحساس الحقيقي بالموقف التاريخي ، ويكون الانفعال المنبعث عنه انفعالا يحدده الزمان والمكان بالنسبة لهذا الموقف التاريخي منا ، فقد تستثير معركة « هيستنجز » ألواناً من المشاعر في نفس الإنجليزى لا تستثيرها في نفس المصرى أو الفرنسى ولا ريب أن معركة المارن في الحرب العالمية الأولى تستثير مشاعر متباينة عند الألمان والفرنسيين ، والموقف التاريخي واحد لا يتغير في كل حالة ، « فالرأى حر والوقائع مقدسة » كما يؤثر عن الصحفي الإنجليزى « س . ب . سكوت » .

المحدث والموقف التاريخي :

و حين تتحرى الموقف التاريخي في السيرة أو في حياة البطل فيكشف لنا عن نواحي تفرد و تميزه ، فإننا نبرز الإطار العام الذي تتحرك السيرة في حدوده أو تتحرك بين زواياه أهمية البطل .

والذى يحدد الموقف التاريخى هو الحدث أو العمل أو الواقعة التاريخية ، والسيرة كالتاريخ هى سلسلة من الأحداث أو الأعمال أو الوقائع التاريخية ولكن ما كل عمل يكون واقعة تاريخية ، وحين نتكلم عن الحدث أو العمل أو الواقعة من وجهة نظر التاريخ فإنما نعنى تلك الأحداث أو الأعمال أو الوقائع التى تكون العمود الفقرى للتاريخ ، فعبور هانيبال لجبال الألب واقعة تاريخية ، بينما لا يشير عبور جبال الألب بقصد النزهة أو التسلق اهتماماً تاريخياً ، وحين قال خالد بن الوليد وهو على فراش الموت « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسمى موضع إلا وفيه طعنة أو ضربة وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » أصبح قوله تاريخياً ، ولكن ليس كل ما يقوله الناس مما يعنى التاريخ حفظه ، وقد لا يعنينا متى تناول قيصر عشاءه أو غداءه ولكن يعنينا ماذا قال قيصر فى مجلس الشيوخ .

فالواقعة التاريخية هى التى تخلق الموقف التاريخى ، وحين تنتقى الواقعة فلا بد لنا أن نتحلى بالدقة ، والدقة فى التاريخ واجبة وليست فضيلة ، فمن المهم أن نعرف متى كانت معركة « عين جالوت » وفى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار انتحرت

كليوباترا ، مع أنه لا يمر يوم إلا وتقع فيه حوادث انتحار كثيرة ، ولكن انتحار كليوباترة يكون واقعة تاريخية وهذا الانتحار قد خلق بالتالى موقفاً تاريخياً انتهى به طور من أطوار التاريخ المصرى ، وبدأ طور جديد أصبحت مصر المستقلة فيه إيالة رومانية . وتحديد الساعة التى انتحرت فيها الملكة المصرية تحديداً دقيقاً هو الذى يحدد لنا بداية هذا الطور الجديد فى تاريخ مصر وإن حددته بعد ذلك المراسيم والقرارات ، فالمراسيم والقرارات لا تعبر حينذاك إلا عن أمر واقع هو النتيجة الطبيعية لانتصار أوكتافيوس وانتحار كليوباترا ونهاية حكم البطالمة .

وتكيف الواقعة التاريخية فى السيرة تفرد البطل بصفات وسمات معينة قد لا نراها فى سير التاريخ العام حين ننتقل من الحديث عن صفات الفرد إلى طبائع المجتمع الإنسانى . فالفرد وإن كان جزءاً من المجتمع الإنسانى الذى ينتمى إليه إلا أنه ينغرد بصفات قد لا نراها فى بيئته ، أو أنها على الأقل تختفى وراء الطابع العام للجماعة ولكن الفرد هو الذى يعبر عنها صراحة ويجعلها حقيقة واضحة جلية .

فاذا ذهبنا مذهب السيكلوجيين فى تحليل مشكلات المجتمع وردّها إلى سلوك الفرد ، فإن السمات التى تستهدها الوقائع

التاريخية في حياة بطل السيرة قد تهديننا إلى تحليل سلوكه
ومن ثم تهديننا إلى النوازع اللاشعورية التي تكيف حوافزه
ونزواته ، ولكننا لا نحب أن نذهب بعيداً مع أصحاب النزعة
السيكلوجية في تحليل الأحداث التاريخية ويفرينا بهذا فشل
السيكلوجيين في دراسة البيئة الاجتماعية للفرد ، ولا نحب أن
نضرب في مجاهل التخمينات مفترضين أنها تقودنا إلى تحليل
ما للحوافز والنزعات التي تكيف الموقف التاريخي ، فالذي
يكيف الموقف التاريخي في ذهن المؤرخ هو الحدث التاريخي
الذي ثبت وقوعه وليست تلك التخمينات التي تضرب في
أستار مجهولة .

وقد يهديننا علم الاجتماع إلى ما عجز عنه علم النفس ، فالتاريخ
هو البحث في ماضي الإنسان في المجتمع وليس البحث في الدوافع
الشعورية لسلوك الأفراد في المجتمع ، حتى وإن عنى التاريخ
بتقصي الحوافز الفردية لقيام الناس بأفعالهم وفقاً لتقديرهم ،
فالحوافز التي يتقصاها التاريخ في سلوك الأفراد هي حوافز
شعورية وليست حوافز لاشعورية ، ومهما قيل في قيمة هذه
الحوافز اللاشعورية وقدرتها على تحديد سلوك الأفراد ، فإننا
لا نستدل عليها إلا من تفسيرنا لسلوك الفرد الواعي أو ما يقع

منه فعلا ، ولكن إذا أردنا تحليل الحوافز اللاشعورية فإننا نتلمس تفسيرها مما وقع منه فعلا ، فإذا عرفنا ما وقع فعلا فإنه وحده هو الذى يهم التاريخ ، أما تفسيره فلا يعنيه كثيراً بقدر ماتعنيه الآثار التى ترتبت على تلك الأفعال ، أو بمعنى أوضح لا يعنيننا من الواقعة التاريخية إلا أنها وقعت فعلا ، وأنها أدت إلى نتائج معينة ، فإذا أردنا تفسيرها فإنما نفسرها على ضوء ما وقع فعلا وما ترتب على وقوعها من نتائج ، وفيه يتجلى الحافز الواعى بتحديد الأسباب التى قادت إليها ويختفى اللاواعى تحت أستار الطبيعة الفردية .

والحدث التاريخى ليس واقعة فردية تمت فى عزلة عن المجتمع ، وإنما هو نتاج تأثير متبادل بين الفرد والمجتمع ، وقد يكون نجاح البطل فى التاريخ لأنه قادر على المواءمة بين نفسه وبين مجتمعه أو بين ظروف الزمان والمكان ، وفى هذا قد يتنكر تماماً لحوافزه اللاواعية ويتكون لديه حافز حقيقى هو الذى يعبر به عن عصره ويجمله حقيقة واقعة .

وكثيراً ما نقف حائرين أمام انحراف بعض الأحداث التاريخية عن سيرها العام فنذهب مذاهب شتى فى تفسير أسباب ذلك ، فيقال إن الإنسان منفذ غير واع لإرادة الله ويقال

« اليد الخفية » كما يرى « آدم سميث » ، ومكر العقل كما يرى « هيجل » في تفسير القوى التي تدفع الإنسان للعمل من أجلها ولأجل غاياتها وإن ظن أنه يعبر عن ذاته ويحقق رغباته ، وفي « الحرب والسلام » لتولستوى ما يشبه هذا التعليل حين يقرر أن الإنسان يعيش واعياً لنفسه ، ولكنه أداة لا واعية لتحقيق الغايات التاريخية ، وكل هذا هراء ، فالأحداث التاريخية لا تحكمها إرادة الإنسان أو رغبة الجماعات فحسب ، وإنما يؤثر فيها ماضى الإنسان كما تتأثر بعديد من العوامل المتنافرة والمتسقة التي تتحكم في طبيعة المجتمع الإنسانى ، والتي تفوق في الغالب إرادة الإنسان وإن كانت من صنعه ومن نتاج تفكيره ، والإنسان لا يعيش في عزلة مطلقة يسمح فيها الفعل ورد الفعل للإرادة الجماعية ، وإنما يعيش في زمن يتأثر بظروفه ، وفي مكان يتحكم في إرادته ، ويحيا حياة اجتماعية يتصل فيها الأفراد بعضهم ببعض ، وفي ظل هذا الاتصال الذي تحكمه طبيعة الجماعات تنوع إرادة الأفراد ويتطور سلوكهم وغاياتهم يوماً بعد الآخر ، والانحراف في بعض الأحداث التاريخية هو انحراف في بعض طبيعة الأفراد والجماعات أيضاً . ولكن الفرد لا يدرك هذا الانحراف ولا يحسه في وقته ،

كما لا يحس بالآثار التي تترتب على تقدم السن في صاحبه إلا إذا انفصل عنه زمناً ، فيرى مدى التغير الذي ألم به في السنوات التي انفصل عنه فيها ، فالمشاهدة اليومية والاتصال المستمر بالأحداث يخفي عوامل التغير الدائبة المستمرة في طبيعة الفرد وفي طبيعة المجتمع .

فالحافظ الذي نغنيه في حياة صاحب السيرة هو الحافظ الواعي الذي يعبر عن إرادة سافرة ، وهو الذي يحرك العبقریات والمواهب ، ويهيء للحدث التاريخي ويكيفه ، ولكن هذا الحافظ كما قلنا لا ينشأ في فراغ وإنما هو تعبير صادق لإرادة العصر وطبيعة المجتمع وإلا ما ترك أثراً في التاريخ .

ولكل سيرة امتدادها الزمني ، وفي هذا الامتداد تتحرك الوقائع التاريخية للبطل ، فإذا كانت الوقائع هي التي تبرز الإطار العام الذي تتحرك السيرة في حدوده ، فإن امتدادها الزمني هو الذي يحدد سعة هذا الإطار من حيث الزمن ، وإن كانت الوقائع هي التي تحدد امتدادها التاريخي ، فالامتداد الزمني للسيرة هو العمر الذي عاشه صاحبها من مولده إلى مماته ، أما امتدادها التاريخي فهو الزمن الذي تمتد خلاله وقائعها التاريخية ، وقد يتسع هذا الامتداد التاريخي إلى ما بعد العمر الزمني لصاحب السيرة طالما

ظلت وقائعه التاريخية مؤثرة على مدى الأجيال والأزمان ،
فالامتداد التاريخي لسيرة محمد وعيسى « عليهما السلام » باق ما بقى
الإسلام وما بقيت المسيحية ، والامتداد التاريخي لسيرة شكسبير
باق ما بقى تأثير شعره ومسرحه ملهماً للنفس الإنسانية ،
والامتداد التاريخي لسيرة جيمس وات مكتشف البخار باق ما بقى
البخار قوة محرّكة ، والامتداد التاريخي لسيرة ماركس باق
ما بقيت الشيوعية قائمة ، فإذا اندثرت وكفر الناس بها فإن
امتدادها يقف عند حدود الزمن الذى تأثر بها ، وتصبح بعد
ذلك حدثاً تاريخياً من ذكريات الماضى ، وإن بقيت تعين على
جلاء الحاضر وتفسيره كما هو القصد من أى بحث تاريخي .

ولكل سيرة مكانها الذى درجت فيه ، وفيه تتحدد حوافز
صاحبها وتتجلى مواهبه ، وقد لا تثمر حوافزه ومواهبه فى مكان
آخر ، وهنا كما قلنا يبرز التأثير المتبادل بين البطل وبيئته ، ومن
المسلم به أن البيئة والمجتمع عاملان هامين فى الكشف عن البطل
وإبراز مواهبه وإبراز عظمته وتحديد مكاتته فى التاريخ فلو أن
« تشرشل » كان فى أحد دول أمريكا اللاتينية أو بلد من بلدان
آسيا المستعمرة ، لما كان تشرشل الذى ارتبط تاريخه بتاريخ
الامبراطورية البريطانية ، وربما لم يكن تشرشل على الإطلاق ،

ولو أن غاندى كان فى انجلترا فلربما لم يكن غاندى على الإطلاق
ولربما جهله التاريخ جهلاً تاماً .

ولكن هناك من العظماء من تتعدى عظمتهم حدود الزمان
والمكان كالأنبياء والرسل وأصحاب الرسالات الإنسانية وهؤلاء
تنشق الإنسانية عطرهم على طول المدى .

السيرة قصة إنسانية كما هى تاريخية :

وفى كتابتنا للسيرة علينا أن نستهدى تلك الحقائق ، فالسيرة
قصة إنسانية ، وهى تاريخ حق يمثل أروع فنون الكتابة التاريخية
وهى امتداد لحياة عظيم فى زمان ومكان معينين ، ويمتد الزمن
بها إلى ما وراء جيلها ، ثم إنها تمثل مواقف تاريخية لها حوافرها
ومراميها ، ووراءها تكن عبقرية مواتية ومواهب تضافى على
الموقف التاريخى طابعاً معيناً .

والسيرة كالتاريخ لا تتكرر ولا تعيد نفسها أبداً وإن
تشابهت بعض السير كما تشابه بعض المواقف التاريخية ، إلا أنها
لا يمكن أن تتكرر بنفس السمات والأسلوب ؛ بل إنها لتفوق
التاريخ فى هذا ، وبقدر ما تختلف أشكال الإنسان وصوره بقدر

ما تختلف السير حتى وإن عملت في ميدان واحد من ميادين الحياة وفي زمان ومكان واحد .

وفي كتابة السير يجب أن تتم كتابتها عن صاحبها تماماً كما يتم الحدث التاريخي عن الموقف التاريخي الذي يلابسه وإلا جاءت باهتة . لا نرى بينها وبين غيرها اختلافاً أو تمايزاً ، كأن نصف إنساناً بأنه يتكلم ويمشي على رجلين وله يداً وعينان من تلك الصفات التي يشترك فيها الناس جميعاً ، فإذا قلنا إنه يعرج أو إن له يداً فيها أربعة أصابع لا خمسة ، أو إن في نطقه لثغة أو ينطق القاف كافاً أو فوق الحاجب من وجهه ندبة فإننا بذلك نميزه عن غيره ، وكلما دقت وجوه الاختلاف والتمايز كان الوصف دقيقاً للدلالة على صاحبه .

وهكذا في كتابة السيرة نبحت عن السمات المميزة لصاحبها في ميدان التفوق والبروز والتي تطفئ على ما عداها من السمات الأخرى ، وهي تلك السمات التي تكون شخصيته التاريخية وتفرده له مكاناً معيناً بين أقرانه في التاريخ .

والسيرة أكثر نبضا بالحياة من التاريخ ، ففيها نلمس الإنسان مباشرة ، أما في التاريخ فإننا نلمس الإنسان عن طريق الأحداث التاريخية التي أحاطت به ، فهما قيل من أن الإنسان هو المؤثر

في عملية التاريخ ، فإن المجتمع هو الذي يبرز التأثير التاريخي
للفرد ويتفاعل معه ، وهنا نتخذ من الأحداث محورا للتاريخ ،
أما في السيرة فإننا نتخذ من الإنسان الفرد محورا نؤلف حواليه
الأحداث التي أحاطت به والتي وقعت منه مباشرة .

وعلى مؤرخ السيرة أن يتفاعل مع أبطال سيره وأن يقترب
منهم قربا شديدا ، ولن يقترب منهم مالم تكن ثقافته ممثلة للناحية
التي برزوا فيها ، فلن يكتب سيرة « شوقي » غير أديب أو شاعر
يحس تلك الروعة التي يضوع بها شعره ، ولن يكتب عن
« روميل » غير كاتب يلم بفنون الحرب وأساليب القتال ، ولن
يكتب سيرة « هيمنجواي » غير ناقد قصاص .

ومن الخطأ أن نقيم تلك الحواجز الصلدة بين كتاب التاريخ
فقد اعتدنا أن ندرج مؤرخي الأدب بين الأدباء ، ومؤرخي
المعارك بين العسكريين ، ومؤرخي الفن بين الفنانين وهم في نظر
الواقع التاريخي مؤرخون يبحثون في ماضي الإنسان وتاريخه .
ومصدر الخطأ في هذا أننا لانعد التاريخ إلا التاريخ السياسي
ولكن التاريخ معناه الحق هو تاريخ الإنسان ، الإنسان الذي
يعيش في مجتمع ويتفاعل معه ويتأثر به ويؤثر فيه في شتى
مجالات نشاطه من سياسة وأدب وعلم وفن وحرب واقتصاد إلخ .

وقد يختص المؤرخ بناحية من نواحي التاريخ فيقصر جهده على دراستها والإلمام بها كالتأريخ للفن أو الاقتصاد أو الحرب أو السياسة مبتعداً بذلك عن دائرة التاريخ العام ، ولكن هذا لا يخرج من زمرة المؤرخين كما لا يخرج من زمرة العلماء العالم المختص بالكيمياء أو الفيزياء .

والتاريخ للسير لون من ألوان البحث التاريخي ، ولكن للسير ألوانها كما للتاريخ صنوفه ، وكلما كان بطل السيرة أقرب إلى مزاج المؤرخ وإلى ميدان بحوثه تجلت قدرة المؤرخ في إبراز سيرته وتصويرها . وكلما اتسع أفق المؤرخ واتسعت آفاق معرفته كلما كان أقدر على كتابة العديد من ألوان السير . والتاريخ يعد سيرة طويلة المدى تمتد مع الزمن إلى مالا نهاية وتغوص في أعماق الماضي إلى أبعد مما أتاحت لنا المدونات أن نعرف ، هو سيرة الإنسان في زمانه ومكانه ومع الزمان والمكان إلى حيث يقف بنا الزمن من مداه وهو يغذ السير إلى مستقبل لا يعلمه غير الله ؟

المكتبة الثقافية تحقق اشتراكية الثقافة

صدرتها :

- ١ — الثقافة المريية أسبق من { للأستاذ عباس محمود العقاد
ثقافة اليونان والعبريين
- ٢ — الاشتراكية والشيوعية ... للأستاذ علي آدم
- ٣ — الظاهر بيبرس في القصص الشعبي للدكتور عبد الحميد يونس
- ٤ — قصة التطور للدكتور أنور عبد العليم
- ٥ — طب وسحر للدكتور بول غليونجي
- ٦ — فجر القصة للأستاذ يحيى حقي
- ٧ — الشرق الفنان للدكتور زكي نجيب محمود
- ٨ — رمضان للأستاذ حسن عبد الوهاب
- ٩ — أعلام الصحابة للأستاذ محمد خالد
- ١٠ — الشرق والإسلام للأستاذ عبد الرحمن صدقي

- ١١ — المربخ ... } للدكتور جمال الدين الفندي
والدكتور محمود خيرى
- ١٢ — فن الشعر ... للدكتور محمد مندور
- ١٣ — الاقتصاد السياسى ... للأستاذ أحمد محمد عبد الخالق
- ١٤ — الصحافة المصرية... للدكتور عبد اللطيف حمزة
- ١٥ — التخطيط القومى ... للدكتور إبراهيم حلمى عبدالرحمن
- ١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية ... للدكتور ثروت عكاشة
- ١٧ — اشتراكية بلدنا ... للأستاذ عبد المنعم الصاوى
- ١٨ — طريق الغد ... للأستاذ حسن عباس زكى
- ١٩ — التشريع الإسلامى واثره } للدكتور محمد يوسف موسى
فى الفقه الغربى
- ٢٠ — العبقريّة فى الفن ... للدكتور مصطفى سويف
- ٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر ... للأستاذ محمد صبيح
- ٢٢ — قصة الذرة ... للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
- ٢٣ — صلاح الدين الأيوبي بين } للدكتور أحمد أحمد بدوى
شعراء عصره وكتابه
- ٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى
- ٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب ... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
- ٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور أحمد سويلم العمري
- ٢٧ — القومية العربية ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
- ٢٨ — القانون والحياة ... للدكتور عبد الفتاح عبدالباقى

- ٢٩ — قضية كينيا للدكتور عبد العزيز كامل
- ٣٠ — الثورة العراقية الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣١ — فنون التصوير المعاصر للأستاذ محمد صدق الجباخنجي
- ٣٢ — الرسول في بيته للأستاذ عبد الوهاب حمودة
- ٣٣ — أعلام الصحابة « المجاهدون » للأستاذ محمد خالد
- ٣٤ — الفنون الشعبية للأستاذ رشدي صالح
- ٣٥ — اخناتون للدكتور عبد المنعم أبو بكر
- ٣٦ — الذرة في خدمة الزراعة للدكتور محمود يوسف الشواربي
- ٣٧ — الفضاء الكوني للدكتور جمال الدين الفندي
- ٣٨ — طاغور شاعر الحب والسلام للدكتور شكري محمد عياد
- ٣٩ — قضية الجلاء عن مصر للدكتور عبد العزيز رفاعي
- ٤٠ — الخضروات وقيمتها الغذائية والطبية للدكتور عز الدين فراج
- ٤١ — العدالة الاجتماعية للمستشار عبد الرحمن نصير
- ٤٢ — السينما والمجتمع للأستاذ محمد حلمي سليمان
- ٤٣ — العرب والحضارة الأوربية للأستاذ محمد مفيد الشوباشي
- ٤٤ — الأسرة في المجتمع المصري القديم للدكتور عبد العزيز صالح
- ٤٥ — صراع علي أرض الميعاد للأستاذ محمد عطا
- ٤٦ — رواد الوعي الإنساني للدكتور عثمان أمين
- ٤٧ — من الذرة إلى الطاقة للدكتور جمال نوح
- ٤٨ — أضواء على قاع البحر للدكتور أنور عبد العليم

- ٤٩ — الأزياء الشعبية للاستاذ سعد الحادام
- ٥٠ — حركات التسلسل ضد القومية العربية للدكتور إبراهيم أحمد العدوى
- ٥١ — الفلك والحياة ... { للدكتور عبد الحميد سماحة
والدكتور عدلى سلامة
- ٥٢ — نظرات فى أدبنا المعاصر ... للدكتور زكى المحاسنى
- ٥٣ — النيل الخالد للدكتور محمد محمود الصياد
- ٥٤ — قصة التفسير للأستاذ احمد الشرباصى
- ٥٥ — القرآن وعلم النفس ... للأستاذ عبد الوهاب حمودة
- ٥٦ — جامع السلطان حسن وما حوله للأستاذ حسن عبد الوهاب
- ٥٧ — الأسرة فى المجتمع العربى بين { للأستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوى
الشريعة الإسلامية والقانون
- ٥٨ — بلاد النوبة للدكتور عبد المنعم ابوبكر
- ٥٩ — غزو القضاء للدكتور محمد جمال الدين الفندى
- ٦٠ — الشعر الشعبى العربى للدكتور حسين نصار
- ٦١ — التصوير الإسلامى ومدارسه للدكتور جمال محمد محرز
- ٦٢ — الميكروبات والحياة للدكتور عبد المحسن صالح
- ٦٣ — عالم الأفلاك للدكتور إمام إبراهيم احمد
- ٦٤ — انتصار مصر فى رشيد ... للدكتور عبد العزيز رفاعى
- ٦٥ — الثورة الاشتراكية { للأستاذ احمد بهاء الدين
« قضايا ومناقشات »
- ٦٦ — الميثاق الوطنى قضايا ومناقشات للأستاذ لطفى الخولى
- ٦٧ — عالم الطير فى مصر للأستاذ احمد محمد عبد الخالق
- ٦٨ — قصة كوكب للدكتور محمد يوسف موسى

٦٩ —	الفلسفة الإسلامية	للدكتور احمد فؤاد الأهواني
٧٠ —	القاهرة القديمة وأحيائها	للدكتورة سعاد ماهر
٧١ —	الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء	للأستاذ محرم كمال
٧٢ —	قرطبة في التاريخ الإسلامي	للأستاذ محمد محمد صبح والدكتور جودة هلال
٧٣ —	الوطن في الأدب العربي	للأستاذ إبراهيم الإيباري
٧٤ —	فلسفة الجمال	للدكتورة اميرة حلمي مطر
٧٥ —	البحر الأحمر والاستعمار	للدكتور جلال يحيى
٧٦ —	دورات الحياة	للدكتور عبد المحسن صالح
٧٧ —	الإسلام والمسلمون في القارة الأمريكية	للدكتور محمد يوسف الشواربي
٧٨ —	الصحافة والمجتمع	للدكتور عبد اللطيف حمزة
٧٩ —	الوراثة	للدكتور عبد الحافظ حلمي
٨٠ —	الفن الإسلامي في مصر الأيوبي	للدكتور محمد عبدالعزيز مرزوق
٨١ —	ساعات حرجة في حياة الرسول	للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٨٢ —	صور من الحياة	للدكتور مصطفى عبد العزيز
٨٣ —	حياد فلسفي	للدكتور يحيى هويدي
٨٤ —	سلوك الحيوان	للدكتور احمد حماد الحسيني
٨٥ —	أيام في الإسلام	للأستاذ احمد الشرباصي
٨٦ —	تعمير الصحارى	للدكتور عز الدين فراج
٨٧ —	سكان الكواكب	للدكتور إمام إبراهيم احمد
٨٨ —	العرب والتتار	للدكتور إبراهيم احمد العدوي
٨٩ —	قصة المعادن الثمينة	للدكتور انور عبد الواحد

- ٩٠ — اضواء على المجتمع العربي ... للدكتور صلاح الدين عبد الوهاب
- ٩١ — قصر الحمراء للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
- ٩٢ — الصراع الأدبي بين العرب والعجم للدكتور محمد نبيه حجاب
- ٩٣ — حرب الإنسان ضد الجوع { للدكتور محمد عبد الله العربي
وسوء التغذية
- ٩٤ — ثروتنا المعدنية للدكتور محمد فهم
- ٩٥ — تصويرنا الشعبي خلال المصور للأستاذ سعد الحادم
- ٩٦ — منشآتنا المائية عبر التاريخ للأستاذ عبد الرحمن عبد التواب
- ٩٧ — الشمس والحياة للدكتور محمود خيرى على
- ٩٨ — الفنون والقومية العربية ... للأستاذ محمد صدقي الجباخنجي
- ٩٩ — اقلام نائرة للأستاذ حسن الشيخ
- ١٠٠ — قصة الحياة ونشأتها على الأرض للدكتور انور عبد العليم
- ١٠١ — اضواء على السير الشعبية ... الأستاذ فاروق خورشيد
- ١٠٢ — طبائع النحل للدكتور محمد رشاد الطوبى
- ١٠٣ — النقود العربية «ماضيها وحاضرها» للدكتور عبد الرحمن فهمي
- ١٠٤ — جوائز الأدب العالمية { للأستاذ عباس محمود العقاد
«مثل من جائزة نوبل»
- ١٠٥ — الغذاء فيه الداء وفيه الدواء للأستاذ حسن عبد السلام
- ١٠٦ — القصة العربية القديمة للأستاذ محمد مفيد الشوباشي
- ١٠٧ — القنبلة النافعة للدكتور محمد فتحى عبد الوهاب
- ١٠٨ — الأحجار الكريمة في الفن والتاريخ للدكتور عبد الرحمن زكي
- ١٠٩ — الفلاف الهوائى للدكتور محمد جمال الدين الفندى

- ١١٠ — الأدب والحياة في المجتمع {
المصرى المعاصر
للدكتور ماهر حسن فهمى
- ١١١ — ألوان من الفن الشعبي
للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف
- ١١٢ — الفطريات والحياة
للدكتور عبد المحسن صالح
- ١١٣ — السد العالى « التنبيه {
الاقتصادية »
للدكتور يوسف أبو الحجاج
- ١١٤ — الشعر بين الجمود والتطور
للأستاذ العوضى الوكيل
- ١١٥ — التفرقة العنصرية
للدكتور أحمد سويلم العبرى
- ١١٦ — صراع مع الميكروب
للدكتور محمد رشاد الطوبى
- ١١٧ — الإصلاح الزراعى والميثاق
للأستاذ محمد عبد المجيد مرعى
- ١١٨ — أضواء جديدة على الحروب الصليبية ...
للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
- ١١٩ — الأمم المتحدة وممارسة نظامها ...
للدكتور سليمان محمود سليمان
- ١٢٠ — اسرار المخلوقات المضيئة
للدكتور عبد المحسن صالح
- ١٢١ — التاريخ والسير
للدكتور حسين فوزى النجار

الثن قرشان

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأفلام أساتذة ومتخصصين وبقرنين لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

تطور المجتمع الدولي

للمكتوب بحبي الجمل

أول ديسمبر ١٩٩٤

Bibliothèque Alexandrina



0227301

دار الكتب

العدد ٢

To: www.al-mostafa.com